قضايا إسلامية معاصرة

الدعوة الإسلامية

التجربة . الأخطاء . الحل

للأستاذ الدكتور

رؤوف شلبى

وكيل الأزهر

تصدرها

الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية

بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ « صدق الله العظيم »

(فصلت ٣٣ ـ ٣٥)

أولاً : التجـــربـــــة :ـ

ـــ الاقناع أو محاولة التدريب على التفكير المنظم .

ـــ المنهجيـــــــة .

ـــ مرونـــة الأساليـــب .

ـــ النتائـــــج .

(الإقناع أو محاولة التدريب على التفكير المنظم)

على فترة من الرسل جاءت رسالة الإسلام الحنيف لتصحيح علاقة الإنسان بربه،ولتعيد إلى البشرية توازنها الفكرى والاجتماعى ، ولتسير الحياة سعيدة هانئة رغيدة ، ولتستمر هذه الحياة السعيدة الهانئة الرغيدة إلى يوم الدين.يقول الله تعالى :

﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ ﴾

(البينة ١ ـ ٥)

لقد كانت أهمية الإسلام عائدة إلى ذلك التحريف الهائل الذى شاع في الحياة بما صنعه أهل الكتاب من الأهواء ، وما نسجه المشركون من خزعبلات حسبوها دينا فاستباح الكل أن يتصور العقيدة حسب هواه ومزاجه،كما أضفى على نعم الله أحكاماً من الحل والحرمة حسب الشهوات والعادات والتقاليد ، فضلت البشرية بإرادتها طريقين : ـ

أ ـ طريق العقيدة السليمة الصحيحة .

ب ـ طريق الحياة الاجتماعية النقية السعيدة .

وقد أخذت انحرافات البشرية شوطاً طويلاً جداً فى هـذه الانحرافات على نحو ما هو مسجل في كتب الملل والنحل والأهواء والبدع ...

وليس من شك أن صاحب الكون ـ ربنا ورب كل شيء ـ سوف لا يبقى على هذا الضلال، فقد خلق الكون لحكمة وخلق الإنسان لوظيفة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦ ﴾ وتبعاً لهذا فلابد وأن يرحم الله هذه البشرية برسول أمين يهديها إلى سواء السبيل وكان اصطفاء الله لهذا النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

ومع أن سيدنا محمدا ﷺ بعث ومعه قوة السماء والأرض من جند الله، إلا أنه ﷺ لم يلجأ إلى العنف ولا إلى القسوة ولا إلى القهـر ، ولا إلى التسلط في تبليغ دعـوته لا من حيث النص المعصوم وحى الله إلى جنابه الكريم ولا فى ممارساته الزكية النبيلة المشهودة بل اختار طريق الاقناع كأسلوب ثابت فى جميع مراحل الدعوة وهو ﷺ ليبلغ رسالة الله .

ولكى تتضح الصورة يجدر بنا أن ننوه إلى أن الوحى إلى سيدنا محمد ﷺ نزل عليه بمكة المكرمة والكعبة يعلوها مئات من الأصنام ، والجاهلية تضرب بأطنابها في جميع أنحاء الحياة العربية .

فكيف ومتى أنهى سيدنا رسول الله ﷺ هذه الصورة البغيضة للأصنام وهى فى جوف البيت الحرام ؟

كم استغرق من الزمن

وكم استخدم من الأساليب

حتى يصل إلى هذه الغاية ... ؟؟

إن هذا السؤال الذى نطرحه لا يجد جواباً غير أن الزمن كان طويلاً وأن الأسلوب الذى استخدمه سيدنا رسول الله ﷺ كان متناسباً مع هذا الطول وهو الإقناع .

وقد امتاز أسلوب الإقناع الذى اختاره الإسلام كأسلوب للحوار فى تبليغ الدعوة بعدة امتيازات منها :

١ ـ رفع أثقال العادات والتقاليد .

٢ ـ توجيه الإقناع إلى العقول والقلوب والوجدان .

ولنضرب لذلك أمثلـــة :

أ ـ رفع أثقال العادات والتقاليد : ـ

كانت التعلة عند العرب فى عدم استطاعتهم قبول الدعوة إلى الله أنهم وجدوا آباءهم كذلك يفعلون فتصدى القرآن الكريم لهذه التعلة من جذورها وبين لهم أنهم ليسوا وحدهم الذين يتعللون بهذه التعلة بل هى علة إبليسية من قديم الزمان .

فقد قالها من قبل قوم نوح :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(المؤمنون ٢٣ ، ٢٤)

فانغلاق الفكر والحجر على التفكير لعلة أن الذي جاء لم يكن عليه الآباء الأولون تعلة قديمة حاكها الإنسان بغيه حول عقله ومشاعره دون ما سبب ولا ذريعة صادقة مقبولة وقد قالها كذلك قوم هود :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(الشعراء ١٢٤ ، ١٢٥، ١٢٦)

فتحجروا بل إن التحجر العقلي لديهم ليصل بهم إلى قولهم :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(الشعراء ١٣٦)

وتعللوا بنفس العلة :

﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

(الشعراء ١٣٧)

وإذا كان هذا هو خلق الأولين فهل تستمر القدوة بهم دون مراجعة حتى

﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(المائدة ١٠٤)

وفاجأتهم الدعوة بفصل التكاليف وتحمل التبعات وأن ليس للإنسان إلا ما سعى فتلا عليهم الوحي الكريم :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(الإسـراء ١٥)

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

(الزلزلة ٧ ، ٨)

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

(النجم ٣٩ ، ٤٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

(لقمان ٣٣)

﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(المدثر ٣٨ ، ٣٩)

٢ ـ محاولة اقناع العقول والشـــعور

وإذن فلم تعد لتعلة الانقياد للعادات وتقاليد الآباء ذريعة فنقلهم إلى مرحلة الحوار والبراهين وحدد منهم نقاط الخلاف :

ـــ فى الألوهيـــــــة .

ـــ وفى النبـوة والقرآن .

ـــ وفى البعـــــــث .

الألوهيـــــة : ـ

أما قضية الألوهية فقد سألهم سؤالاً واضحاً صريحاً

ـــ من خلق السموات والأرض ؟

ـــ من يرزقكم من السماء والأرض ؟

ـــ من يجيب المضطـــــر ؟

ـــ من أنزل من السماء ماء فأنبت به هذه الحدائق ؟

ـــ من يكشف الســـوء ؟

ـــ من يرسل الرياح بشرا ؟

ـــ من جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً ؟

أما هم فإنهم يجيبـــــون ؟

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

(الزخرف ٩)

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

(يونس ٣١)

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(الزخرف ٨٧)

إذن فهم لا ينكرون الألوهية ولكنهم مشوشون فكرياً ويقولون ما نعبد الأصنام إلا زلفى.تعلة عقلية فسرها علماء النفس حديثاً بأنها تبرير لسلوك غير مرضى ويرد الله على شبهتهم هذه : أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟

وبعد ما استخرج القرآن الكريم من نفوسهم الحق في قضية الاعتقاد الصحيح نحو الله الحق استعرض معهم فى مناقشة واسعة كل دعاويهم .

مناقشة دعـــــاوى المشركين

(١) لا اله إلا الله

كانت معركة انتقال المجتمع المكى من الجاهلية إلى الإسلام ـ رغم ضخامة المجابهة وطول الزمن ـ ذات أثر إيجابى أثمرت فيه الدعوة ثماراً طيبة بقيت ركائز للحياة الإسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وفى مقدمة هذه الثمار :

ـــ إثبات التنزيه والوحدانية لله جل جلاله .

ـــ وإثبات النبوة والقرآن لسيدنا محمد ﷺ .

ـــ وإن البعث حق .... الخ .

وإنه بالإضافة إلى ما عالجته في الباب الثالث عند الحديث على منهاج التفكير، ورأينا كيف أثبت القرآن الوحدانية لله جل جلاله : وحدانية الذات والسلطان والتدبير ، فإن القرآن الكريم قد عمق مناقشة هذه القضية مع مشركى العرب فلم ينته العهد المكى إلا وقد استقرت فكرة التوحيد فى جلاء جلى ووضوح واضح ، ولم يبق لمعاند فيها أدنى شبهة، وسأعتصم بإذن الله بقدر الإمكان بالجو القرآنى المكى فى عرض مناقشات القرآن الكريم للشبهات التى أثارها القوم .

لقد قالوا :

﴿ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ ﴾

(الصافات ١٥٢)

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(الصافات ١٥٣)

﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾

(ص ٥)

وأدعوا أنهم ما يعبدونها إلا زلفى :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾

(الزمر ٣)

والقرآن الكريم يفند هذه الدعوى فى أنواع من المناقشة :

النوع الأول : يتجه نحو ما يشركون به :-

- ماذا خلقوا من السمٰوات والأرض ؟

- ماذا يملكون للبشر من ضر أو نفع أو رزق ؟

- ماذا يملكون للبشر من شىء إن جاء عذاب الله ؟

وآيات القرآن الكريم حول هذه الأسئلة كثيرة انتخب منها باقة ميسرة كنموذج يصور هذا النوع الذى جابه به القرآن الكريم ادعاءات المشركين .

أولاً : ماذا خلقوا من السموات والأرض ؟

يقول الله تعالى :

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

(الأعراف ١٩١)

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(النحل ١٧)

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

(الفرقان ٣)

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

(لقمان ١١)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(الأحقاف ٤)

ثانياً : ماذا يملكون للبشر من نفع أو ضر أو رزق ؟

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

(الأعراف ١٩٢ / ١٩٤)

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(الأعراف ١٩٥)

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

(الأعراف ١٩٧ / ١٩٨)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

(يونس ١٨)

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

(الروم ٤٠)

ثالثاً : وماذا يملكون للبشر إن جاءهم عذاب الله ؟

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾

(الأنعام ٤٠)

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

(الأنعام ٤١)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

(الأنعام ٤٦)

ولا تنتهى هذه الموجة حتى تحدد إجابات القوم عن الخلق والرزق . يعنى بدء الإنسان وعناصره ووجوده وفيها يقر المشركون بالألوهية والوحدانية لله تعالى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾

(يونس ٣١)

وإذن فالحقيقة التى يجب أن يقر بها القوم :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(يونس ٣٢)

فإذا سئلوا بعد ذلك عن شركائهم أفحموا وأجاب عنهم القرآن الكريم فما حيلة العاجز أمام الحق الأبلج :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(يونس ٣٤)

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ

تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(يونس ٣٥)

ثم يكشف القرآن الكريم عن واحدة من مسببات الكفر وهى فساد منهج التفكير .

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(يونس ٣٦)

ثـم يتحداهـــم :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾

(الإسراء ٥٦)

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾

(الأحقاف ٥)

﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾

(الملك ١٧)

النــوع الثانــى :-

- فى تسميتهم الملائكة بنات الله . وقالوا اتخذ الله ولدا ، وقد ناقشهم القرآن الكريم فى هذه المسألة من عدة جوانب :

الجانب الأول :

- جانب تقاليدهم وعاداتهم فهل هم يستبشرون خيراً إذا بشر أحدهم بالأنثى ؟

لقد وضح القرآن الكريم بل فضح أساريرهم الحزينة إذا بشر أحدهم بالأنثى. يقول الله تعالى :

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(النحل ٥٧ / ٥٩)

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

(الإسراء ٤٠)

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾

(الزخرف ١٦ / ١٧)

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(الزخرف ١٩)

وهنا يسألهم القرآن الكريم :

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(الصافات ١٤٩ / ١٥٩)

هكذا يحاصر القرآن الكريم أسطورتهم في كل مـآربها ، ويحاجهم بمنطقهم ومنطق البيئة التى يمسكون بتراثها وثقافتها الجاهلية .

إنهم يعدون ولادة الأنثى محنة،ويرونها مخلوقاً له درجة دون درجة الذكر ثم هم يدعون أن الملائكة إناث ،وأنهن بنات الله ، فمن أين جاءتهم هذه الأسطورة وهم مع الرتبة الدون لأنهم خلق محتاج إلى بارئه الأجل الأعظم لا يقبلـون الأنثى لهم ذرية

وامتدادا لحياتهم فهل اختار الله البنات وترك لهم البنين ؟ استفتهم عن هذا الزعم السقيم المتهافت ؟ !

ويسترسل القرآن فى تفنيد أسطورتهم حتى الخاتمة .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

(الصافات ١٦١ / ١٦٦)

فينفى قدرتهم على أن يضلوا من عباد الله إلا من هو محسوب من أهل الجحيم وإنهم عاجزون عن فتنة قلب مؤمن محسوب من الطائعين .

ولكل مقامه لا يتعداه :

فالملائكة عباد من خلق الله لهم وظائف فى طاعة الرحمن يصلون الصلاة ويسبحون بحمد ربهم ويقف كل منهم على درجة لا يتجاوزها.والله هو الله الملك القدوس ذو الجلال والإكرام(١) ــ ومثال آخر فى حياتهم المعيشية وهو مثل واضح حاسم لا مجال للجدل فيه :

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٢٣ صـ ٧١ / ٧٢ .

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(الروم ٢٨)

وهو مثل شامل لكل ما كانوا يتخذونه شريكاً من دون الله جنا او ملائكة او اصناماً او اشجاراً .

إنهم - فى العادة الغالبة - لا يرتضون أن يشركهم مواليهم فى شىء مما تحت أيديهم من مال،ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم فى شىء أفليس من العجيب أن يجعلوا لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده ؟

إنهم يأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء فى أموالهم التى هى منحة الله ورزقه الذى ساقه إليهم ، أفليس من المضحك أن يأنفوا ذلك لأنفسهم.ثم يشركون مع الله واحداً من خلقه ، وتعبيرات القرآن الكريم دقيقة ، إنها تخطو بهم رويداً رويدا في ضرب هذا المثل (ضرب لكم مثلاً من أنفسكم) ، فهو مثل قريب لا يحتاج إلى رحلة أو جهد فى تدبير

﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾

(الروم ٢٨)

فهم لا يرضون أن يشاركهم العبيد فى شيء من الرزق فضلاً عن المساواة في ملكيته .

إنهم لا يرضون ذلك لأنفسهم ، وإذن فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى(٢) ؟

سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيراً

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

(الإسراء ٤٣ / ٤٤)

الجانب الثانى ــ السلطان الإلهى :

﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(الأنبياء ١٧)

﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ

---

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤٣١ فى ظلال القرآن جـ ٢١ ص ٤٠ .

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الأنبياء ١٩ / ٢٤)

« لو » مجرد فرض جدلى تفيد امتناع وقوع اللهو لأن الله جل ثناؤه لم يرده أزلا ولن يكون أبدا هناك لهو لأن الفعل منفى منذ الأزل،وهذا تقرير لحقيقة أساسية هى أن اختراع البشر شركاء من دون الله ونسبتهم ذلك إلى الله تجرؤ لا يملكه العباد لأن الله خلق الكون كله حسب علمه وإرادته ولم تتوجه إرادة الله إلى مثل هذا اللهو فلو كانت إرادة الله توجهت للهو ما احتاج الأمر إلى اقتراح لهو من العباد ينسبونه إلى ذاته المقدسة وذلك استنكار لما وقع منهم وتهكم بآلهتهم أن لها قدرة على شيء من نشر إذا من أوليات صفات الإله أن ينشر الأموات من الأرض . فإن الخالقية صفة لله وحده ومن مظاهر الخالقية أن يبعث ما فى القبور ، إذن فما يقولوه :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾

(الزمر ٣)

انحراف عن الطريق السوى ونتيجه لا يملكون له سندا .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾

(الشورى ٩)

لقد استقرت شهادة التوحيد : استقرت فى الدليل واستقرت فى الإعتراف واستقرت في صدور الذين آمنوا بها .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(الأنعام ١٩)

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(الأنعام ١٠٢ / ١٠٣)

﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(يونس ٣٢)

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾ (الإخلاص)

تصحيح التديـن :

ومن هذه الثمرة الأساسية لتوحيد الله جل شأنه تبدو ظاهرة التدين الصحيح كثمرة ملحقة بالثمرة الأولى ، فإن القوم لم يكفروا بالله ، فهم يعتقدون أنه الخالق والرازق والنافع والضار ولكنهم اتخذوا طريقاً منحرفاً فى العبادة.أسرفوا فى العقيدة حتى وسع إيمانهم مخترعات آبائهم وأجدادهم.فكانت الدعوة فى هذا العهد المكى تحاول أن تردهم إلى طريق الله السواء[٣] .

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾

(الزمر ٣)

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾

(الزمر ١١ / ١٤)

« لله الدين الخالص » « الدين الخالص هو القاعدة التى تقوم عليها الحياة كلها بل يقوم عليها الوجود كله ومن ثم ينبغى أن ترسخ وتتضح وتعلن فى هذا الأسلوب الحاسم الجازم : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾

---

(٣) راجع الإسلام والعقل ص ٩٧ / ٩٨ .

والقلب الذى يوحد الله هو الذى يدين لله وحده لا يحنى هامته لأحد سواه .. ولا يطلب شيئاً من غيره ولا يعتمد على أحد من خلقه فالله وحده هو الولى الحميد وهو وحده القوى المتين وهو وحده القاهر فوق عباده ، والعباد كلهم مهازيل ضعاف لا يملكون نفعاً ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وإذن فلا حاجة البتة إلى أن يحنى الإنسان هامته لواحد من المخلوقات المحتاجة بالطبع إلى الله الصمد. فهو وحده المانح والمانع، وهو وحده الغنى والناس جميعاً هم الفقراء إلى الله .

والقلب الذى يوحد الله يؤمن بوحدة الناموس الإلهى الذى يصرف الوجود كله ويؤمن إذن بأن النظام الذى اختاره الله للبشر هو طرف من ذلك الناموس الواحد الذى لا تصلح حياة البشر إلا باتباعه. ومن ثم لا يختار غير ما اختاره الله ولا يتبع إلا شريعة الله المنسقة مع نظام الوجود كله ونظام الحياة كلها .

والقلب الذى يوحد الله يدرك القرابة بينه وبين كل ما أبدعت يد الله فى هذا الكون من أشياء ويحيا فى الكون بقلب يحس بيد الله في كل ما حوله فيعيش فى أنس الله ورعايته ويشعر بالتحرج أن يشرك بالله شيئاً يعلمه أو لا يعلمه .

وتبدو كذلك آثار التوحيد في التصورات كما تبدو فى السلوك فلا تبدو عقيدة التوحيد كلمة تقال باللسان بل تصير حالا للمرء في تفكيره وسلوكه وقلبه وعقله وجميع أنماط تصرفاته(٤) .

---

(٤) راجع الإسلام والإيمان ص ٢١٩ / ٢٢١ ـ فى ظلال القرآن جـ ٢٤ ص ١٠ ، راجع الإسلام والعقل ص ١٠٠ ـ راجع المصطلحات الأربعة فى القرآن ص ١١٥ .

وقد أعلنها القرآن كذلك فيما يتعلق بالنبى ﷺ :

« قل إنى أمرت أن أعبد الله » ، وقيمة هذا الإعلام كبيرة جداً لأنها تحوى أساسا مفهـوم التدين وهـو الخضوع الكـامل والاستسلام التام لجانب الله الأعظم .

إن قيمة هذا الإعلام فى تجديد العقيدة خالصة من كل شائبة ، فالنبي ﷺ وهو المصطفى من عند الله هو فى هذا المقام عبد الله ، وفى مقام العبادة يقف العبيد كلهم حسب مراتبهم الأمثل فالأمثل وترتفع ذات الله سبحانه وتعالى منفردة فوق الجميع ، وعندئذ تتميز العبودية عن الألوهية فلا يختلطان ولا يشتبهان وتتجرد صفة الله الأحد الصمد بلا شريك ولا شبيه ولا ند ، وحين يقف سيدنا محمد ﷺ فى مقام العبودية لله وحده . وهو من هو في تاريخه الطويل الحافل بالقمم الشريفة من الأخـلاق، تتلاشى مخترعات الـذين أشركوا، وتنمحى دعـوى شفاعـة الأصنام والملائكة ويبقى مفهوم التدين خالصاً : « قل الله أعبد مخلصاً له ديني » . ليس فيه خلط ولا تشابه .

فقد وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(الأنعام ١٦٢ / ١٦٣)

إنه التجرد الكامل لله بكل خالجة فى القلب،ونبضة فى العرق وطرفة من العين وبكل حركة في الحياة .

إنها تسبيحة التوحيد المطلق،والعبودية الكاملة تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات وتخلصها لله وحده رب العالمين.فهو المهيمن المتصرف المربى الحاكم ، إنها تسبيحة فى إسلام كامل لا يستبقى فى النفس ولا فى الحياة بقية إلا ويعبدها لله وحده ولا يحتجز دونه شيئاً فى الواقع وفى الضمير « وبذلك أمرت » ، فسمع ﷺ وأطاع حق السمع والطاعة حتى تفطرت قدماه وعبد بذلك الطريق المستقيم فبانت علامات التدين الصحيح [٥] وهى مع تلك الهداية نيرة فى قوله تعالى :

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ ﴾

(الأعراف ٣)

﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٥ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧ ﴾ (يونس ١٠٥ ـ ١٠٧)

---

(٥) راجع فى ظلال القرآن جـ ٨ ص ١٠٠ .

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

(لقمان ٢٢)

﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(الزمر ٥٥)

٣ ـ مفهوم الدين وعناصره :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكافرون)

إن التوحيد منهج،والشرك منهج آخر مقابل.ولا لقاء بين المنهجين البتة،والتوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله إلى الله وحده لا شريك له.ويحدد الجهة والمصدر الذى يتلقى منه الإنسان عقيدته وشريعته وأخلاقه وموازين آدابه وقيمه ، ... وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود .

هذه الجهة التى يتلقى المؤمن عنها هى الله وحده لا شريك له ،

ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس غير ملتبسة بالشركة فى أية صورة من صوره الظاهرة والخفية .

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

(الأنعام ١١٤)

فالآية تستنكر أن يبتغى غير الله حكماً في شأن من الشئون على الإطلاق ، وتقرر أن الحاكمية لله وحده،وتنفى أن يكون هناك أحد غير الله يجوز أن يتجه إليه البشر طلباً لحكم منه فى أمر من أمور الحياة ،والقرآن كثيراً ما يؤكد هذا المبدأ ويكرره فى كل مناسبة .

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(يوســـــف ٤٠)

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(القــصص ٧٠)

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(القصص ٨٨)

وإذن فالدين هو منهج الله للبشر، وهو وحى الله إلى أنبيائه ليسلك العباد طريقهم إلى الله (٦) .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾

وإذا كان الدين هو وحى الله فإن القرآن الكريم قد حرص على أن يبرز عناصر هذا الدين الذى حمله موكب الأنبياء على التعاقب .

﴿ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(الأنعام ٩٢)

﴿ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(الأعراف ٢)

---

(٦) راجع المصطلحات الأربعة فى القرآن للمودودى ص ١٩٥ راجع هذا الدين ص ٤ المستقبل لهذا الدين ص ٥ / ٦ ، ١٨ / ١٩ .

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

(النحل ٢)

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(النحل ٦٤)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾

(الكهف ١)

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(الكهف ٢٧)

﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(الزمر ٦٥)

﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

(غافر ٦٦)

في هذه الآيات البينات يحدد القرآن مجموعة العناصر التى يكتمل بها الدين الذى يرتضيه الله لعباده :

العنصر الأول : الموحى أو المصدر وهو الله سبحانه وتعالى .

العنصر الثاني : الموحى به وهو الشريعة المرسلة من قبل الله جل شأنه .

العنصر الثالث : الموحى إليه وهو الرسول النبي الذي أصطفاه الله ليبلغ رسالته إلى الناس .

العنصر الرابع : الوحى أو حامل الموحى به وهو الملك ـ الملك الذى وكله الله تعالى بالسفارة إلى رسوله المصطفى .

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

(النحـــل ٢)

ـــ ينزل : فاعله هو الله جل شأنه .

ـــ الملائكة : الموحى معه .

ـــ بالروح : الموحى به .

ـــ على من يشاء من عباده : الرسول المصطفى .

ـــ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون .

ذلك هو الهدف والغاية التى من أجلها خلق الله الجن والإنس على السواء ...

٤ - وحدة الديـن :

وعلى هذا فإن ثمرة الدعوة الإسلامية في مكة تعلن منذ الفجر الصادق أن كل دين لا تجتمع فيه هذه العناصر فهو دين باطل .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾

(الأنعام ١١٤)

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(الزمر ٦٤)

وعلى هذا فكل ما حمله الأنبياء عن ربهم هو دين واحد يتجه إلى غاية واحدة

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الأنبياء ٢٥)

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

(الأنبياء ٩٢)

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾

(المؤمنـون ٥٢)

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾

(الشـــورى ١٣)

فالآية تقرير لوحدة الوحى . وحدة مصدره ، فالموحى هو الله العزيز الحكيم والموحى إليهم هم الرسل على مدار الزمان .

والوحى واحد فى جوهره على اختلاف الرسل واختلاف الزمن.وهذه الحقيقة تبدو قوية في العهد المكى لتشد أواصر الصلة بين اتباع الوحى في كل زمان ومكان. فهذه أسرتهم تضرب فى بطون التاريخ وتمتد جذورها فى شعاب الزمن وتتصل كلها بالله فى البدء والنهاية فيلتقوا جميعاً ، وفى مسلم « الأنبياء أخوة من علات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد » (٧) .

وإذا كان الذى شرعه الله من الدين للمسلمين الذين آمنوا بمحمد ﷺ وهو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى فإن الغاية العظمى هى :

---

(٧) مسلم جـ ٤ ص ١٨٣٧ / راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٥ ص ٧ / ١١ وجـ ٨ ص ١١٣ .

﴿ أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ فليقفوا جميعاً تحت هذه الراية صفاً واحداً.هذه الراية التى رفعها موكب الأنبياء على التوالى .

نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم حتى انتهت إلى سيدنا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام .

وقد أعلن هذه الوحدة من قبل سيدنا يوسف عليه السلام .

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(يوســـف ٣٨)

كما أعلنها بعده رجل من آل فرعون يكتم إيمانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(غـافر ٣٨)

إنه دين واحد تقرره الدعوة الإسلامية منذ فجرها الصادق في مكة المكرمة ، وتعلن أنها هى الخاتمة لهذا الدين وأنها التاج الأسمى والشرف الأكمل للبشرية أجمعين . .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(الروم ٣٠)

٥ - عالمية الدين :

والدين الذى يدعو إليه سيدنا محمد بن عبد الله منذ أن نزل عليه (اقرأ) هو دين الله للناس كافة وللجن كافة .

يقول الله تعالى :

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

(الأنعام ٩٠)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعراف ١٥٨)

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(يونس ١٠٨)

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(يوسف ١٠٤)

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾

(إبراهيم ١)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(الأنبياء ١٠٧)

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾

(الفرقان ١)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سبأ ٢٨)

﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (ص ٨٧)

﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (القلم ٥٢)

﴿ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(التكوير ٢٦ ، ٢٧)

وقد شهدت الجن بأنها على هذا الدين استجابة لداعى الله .

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ

﴿ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣١ ﴾

(الأحقاف ٢٩ ـ ٣١)

﴿ قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝٣ ﴾

(الجن ١ ـ ٣)

٦ ـ تصحيح فكرة أن لله ولدا :

وفى هذا العمر المتقدم للدعوة فى كنف البيت العتيق بمكة ظهرت فكرة نفى الولد عن الله سواء كان القائل بهذه الفكرة أهل الكتاب أو بعض العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله .

والقرآن الكريم في هذه المرحلة المكية يصور الدعوى ثم يرد عليها :

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ

﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾

(يونس ٦٨)

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾

(مريم ٨٨ ـ ٩٤)

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾

(الأنبياء ٢٦)

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾

(الصافات ١٥١ ـ ١٥٢)

ومع أن هذه الآيات تصور الدعوى وترد عليها الا أن القرآن الكريم كذلك خصص آيات لنفى هذه الأسطورة التى صنعها المشركون، وهذه الآيات ترد هذه الدعوى من جانبين :

ـ جانب السلطان الإلهى .

ـ إقرار الجن الذين جعل لهم المشركون بالرحمن نسبا .

(أ) أما فيما يتعلق بالجانب الأول فيقول الله تعالى :

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ﴾

(الأنعام ١٠١)

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾

(الإسراء ١١١)

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(المؤمنون ٩١ ــ ٩٢)

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

(الفرقان ٢)

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾

(الزمر ٤)

إن الذى يبدع هذا الوجود من العدم ما تكون حاجته إلى

ولد ؟ والولد إنما هو امتداد للفانين وهو عون للضعفاء وقاعدة التكاثر أن يكون للكائن صاحبة من جنسه فكيف يكون لله ولد وليست له صاحبة. فقد تفرد جل جلاله بالألوهية

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (٨)

(الشورى ١١)

على أن الفرض الجدلى الذى يقبله العقل العادى.أن الله لو أراد أن يتخذ ولدا لاصطفاه هو جل شأنه من بين خلقه فإرادته مطلقة والأمر لا يحتاج إلى قرار من البشر أو اقتراح منهم ولكن مشيئة الله لم تتجه نحو هذا الاصطفاء لأنه الواحد القهار ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾

(الزمر ٥)

فهو صاحب السلطان المطلق فما حاجته إلى خلف ؟

(ب) وأما فيما يتعلق بالجانب الثانى :

فالجن تنفى ما ادعاه البشر وتبرأ من أساطير الناس ، يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(الصافات ١٥٨ ـ ١٥٩)

---

(٨) فى ظلال القرآن جـ ٧ ص ٣٢٥ .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾

(الجـن ١ ـــ ٣)

لقد أقرت الجن بالوحدانية لله وكذبت الأسطورة التى تزعم أن الملائكة بنات الله جاءته من صهر من الجن .

لقد نزهتِ الجن وسبحت بحمد الله فردت ترهات البشر المنحرف، وقد كان للجن أن تفخر بهذا الصهر الخرافى الأسطورى لكنها استنكرت هذا التحريف البشرى فأعلنتها قذيفة ضخمة تحطم ذلك الذى حاكه المشركون .

٧ ـ عيسى ابن مريم :

وفى خضم نفى أسطورة الولد يصحح القرآن التصور عند أهل الكتاب فيما يتعلق بعيسى (٩) ، يقول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

---

(٩) راجع مناقشة للرسول ﷺ فى شأن عيسى عليه السلام في سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٥٩ / ٣٧٠ .

وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

(مريــم ٣٤ ـ ٣٦)

لقد نطق عيسى ابن مريم بنفسه وبحالته : « ما كان لله أن يتخذ من ولد » . « وأن الله ربى وربكم فاعبدوه » ، « فلم يبق من بعده مجال للأساطير والأوهام وبتلك التنقية تبدو عالمية الدعوة الإسلامية فى مكة بالموضوع : إنها ليست عقيدة لجنس خاص ، ولا دعوة لطائفة من الناس، ولكنها إنهاء لسلطة الأساطير البشرية، وإحلال للإيمان الإسلامى في الصدور والسلوك فهى نقلة من عالم الحيوان الذى يعيش فيه البشر إلى عالم الإنسانية الذى يقدس فيه الناس ربهم وقد حمل هذه العقيدة جعفر بن أبى طالب والذين هاجروا معه إلى الحبشة فصادفت موقعا ملائما حيث كانت العقيدة عند النجاشى كذلك ، فكان ذلك اللقاء دليلا واضحاً على عالمية الدعوة بالموضوع وهو الهدف الرئيسى لها « لا إله إلا الله » كمنهج للعقل والقلب والسلوك والوجدان .

وبذلك فقد قررت النصوص القرآنية منذ ذلك الفجر أنه لا أديان متعددة ولا مقارنة بين أديان ، وأن الدين واحد هو نظام الله الموحى به إلى عباده عن طريق سفرائه المرسلين المصطفين الأخيار ، وأن الدعوة الإسلامية شاملة للجنس البشرى كله فى كل صقع وحين ، وقد حافظت نصوص القرآن

الكريم على ذلك الهدف في العهد المدنى إذا كانت تنادى الناس جميعاً وتهتف بهم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾

(النســاء ١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ ﴾

(الحج ١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾

(الحجرات ١٣)

ودلالة هذا أن الهدف الأساسي للدعوة هو أن يشهد الناس جميعاً « أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » فلا يبقى لسان بشر على وجه الأرض ، إلا وقد رطب بها وصعد صوته يدوى بجلالها ، ولا يشغل المسلمون أنفسهم بعوارض الحياة الدنيا ويقبعون فى زاوية من الأرض ويتركون الأساطير تحيا والإشراك يفشو وبناة الأصنام يعيشون فى سلام .

أن : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » هى وظيفة الدعاة اليوم لا سيما في جنوب شرق آسيا ، ماليزيا ، سنغافورا ،

تايلاند ، الهند الصينية ، حيث توجد الأصنام فى الشوارع وعلى قارعة الطريق وفى قلاعها وفى بيوتها وفى منازل الناس الذين مازالوا يجهلون الطريق السواء إلى الله الواحد الصمد العزيز الجبار المتكبر سبحان الله وتعالى عما يشركون .

(النبـوة والقرآن الكريـم)

لم يكن كفار قريش ولا الجوار البعيد والقريب من مكة المكرمة ينكر ابتعاث نبى بشرت به الكتب السماوية السالفة .

لقد كانت الجزيرة العربية تنتظر نبياً سيبعث، وكانت النصارى فى نجران وبصرى واليهود في يثرب وهرقل فى أوروبا القديمة ينتظرون مبعث النبي الذى بشرت به التوراة والإنجيل .

ولم يشك العرب قط فى أن محمدا ﷺ حقاً الصادق الأمين وأنه حقاً رسول الله ... ولكنهم عارضوه لعلل وضحتها فى كتاب « الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى » ولكن الذى أحب أن أشرحه هنا هو كيف كثف القرآن جهده ليزيل غشاوة المعاندين فيما يتعلق بشبهاتهم نحو النبوة والقرآن الكريم، وسوف نعرض لها فى هذا الإطار :

- ما أنزل الله على بشر من شىء .
- أأنزل عليه الذكر من بيننا .
- إن هذا إلا قول البشر .

اما فيما يتعلق بالنقطة الأولى :

﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ (الأنعام ٩١)

فإن القرآن الكريم يردها من زاويتين :

١ ـ زاوية اعترافهم بأهل الكتاب .

٢ ـ وزاوية الأساس الدافع لهذه الشوشرة .

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

(الأنعـام ٩١ / ٩٢)

١ ـ لقد كان المشركون فى معرض العناد واللجاج يزعمون أن الله لم يرسل رسولاً من البشر ولم ينزل كتاباً يوحى به إلى البشر بينما كان إلى جوار هؤلاء المشركين أهل الكتاب من اليهود الذين يتعاملون معهم في التجارة ويلتقون معهم في

الأسواق ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب . فلِمَ إذن يقولون : ما أنزل الله على بشر من شيء ؟ ذلك منطق العناد واللجاج .

وتمضى آيات أخرى من السور المكية تقرر أن الأنبياء بشر أوحى إليهم من عند الله ؟

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(النحل ٤٣)

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(الإسـراء ٩٥)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(الأنبيـاء ٧ / ٩)

٢ ـ أما زاوية الأساس الذى دفعهم ليختلقوا هذا الزعم فهى السنة المشئومة التى وجدوا عليها آباءهم . فقد كانت

تلك النعلة هى الداء الدفين الذى جعل الناس من قبل يردون دين الله .

يقول الله تعالى :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(هـود ٢٧)

وبهذه اللغة كفر قوم نوح وقالوا له :

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(المؤمنون ٢٤)

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(المؤمنون ٣٣)

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ

ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

(إبراهيم ١٠)

ويرد القرآن هذه المقالة على لسان الرسل :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(إبراهيم ١١)

ويقرر القرآن أن هذه التعلة واحدة من أسباب الكفر :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(الإسراء ٩٤)

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(الإسراء ٩٥)

والذين فى الأرض بشر وليسوا ملائكة، ولقد كفر أصحاب القرية فى سورة يس لهذا المنطق :

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(يس ١٤ / ١٥)

فارتدت الشوشرة واستقرت النبوة اصطفاء من الله لمن شاء من عباده المكرمين .

والنقطة الثانيـــة : -

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ ﴾

(ص ٨)

ذلك دافع الحسد « فالله أعلم حيث يجعل رسالته » ، ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا ﴾ ، وتلك إرادة الله لا مدخل لواحد من الخلق فيها البتة ، ويجيب القرآن فى بساطة وسهولة :

﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾

(ص ٨ / ١١)

إنه الحسد وضيق الصدر دون داع ، وبغض الخير دون مبرر ، وقد ظهر ذلك فى اقتراحهم .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(الزخرف ٣١)

فرد عليهم القرآن الكريم مستنكرا هذا الاقتراح. فهو خروج على الأدب مع جانب الله عز وجل. يقول الله تعالى :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الزخرف ٣٢)

إنهم لا يملكون لأنفسهم شيئاً، فمعيشتهم منحة من الله ومراتبهم الاجتماعية تكريم لهم من عند الله لغاية تدبر بها شئون الحياة، فدولاب الحياة لا يدور إلا بهذا التفاوت فى الرزق وفى المراتب الاجتماعية .

ومحمد ﷺ من ذؤابة قريش ثم ذؤابة بنى هاشم وهم فى العلية الرفيعة من العرب ، وكانت ذاته الشريفة عليه الصلاة والسلام فيما قبل البعثة على الأمثل الرفيع جدا من مكارم الأخلاق .

نعم لم يكن زعيماً لقبيلة ولا رئيساً لعشيرة وتلك هى موازين

القوم التى دفعتهم ليعترضوا أو ليقترحوا : « لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » . (الزخرف ٣١)

وهم أنفسهم يشهدون بذلك قال عتبة بن ربيعة : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السلطة فى العشيرة والمكان فى النسب [١٠] .

وقالها أبو سفيان لهرقل « هو من أوسطنا نسبا »[١١] ، فأى دافع لهم اذن على هذا الاقتراح ؟ « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ولقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل.وهم يعلمون أنه كذلك لها أهل فلماذا يقترحون ؟ أنه الحسد الذى حاك فى الصدور .

ولم يترك القرآن القضية تمر دون أن يثبت النبوة لنبينا ﷺ لتبقى في التاريخ والذمة أن القوم كفروا حسدا وتعنتا ولجاجا .

فردهم إلى حاله وحثهم على دراسة أسراره أنه منذ المولد حتى المبعث وهو معروف السريرة مكشوف الخطوات فى شرف سامق ، وعزة أبية ، وكمال محترم ، وما كان يقول هذا القول من قبل فإذا جاءهم بالهدى ، قالوا :

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ (ص ٨)

---

(١٠) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٣ .

(١١) فتح البارى جـ ١ صـ ٣٨ .

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (١٢)

(يونـــس ١٥ ، ١٦)

لقد لبث فيهم من قبل ذلك أربعين عاماً ما حدثهم عن نبوة أو رسالة ولا كان يتلو من كتاب .

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(العنكبـوت ٤٨ ـ ٤٩)

---

(١٢) راجع القرطبي ط الشعب ص ١٦٠ / ٣١٨٢ .

إن الحق الذى جاء به محمد ﷺ يشهد له حاله ويشهد له تاريخه،فهو أمى لم يقرأ ولم يكتب،وقضى فى هذا المستوى أربعين عاماً فإذا ما طلع بين عشية وضحاها فكلم الناس بالوحى وحمل إليهم قانون ربهم ليعبدوا الله على بصيرة.أفى مثل هذا يقول قائل إنه ليس بنبى ؟

إننا إذا وقفنا قليلاً عند هاتين الآيتين فإننا نجد أن الآية الأولى تنفى وقوع الارتياب من عاقل على فرض أن رسول الله ﷺ كان يقرأ ويكتب ذلك . لأن معانى القرآن الكريم ومفاهيم الدعوة آيات بينات فى صدور أهل العلم (١٣) وقد جعل الله لها من قبل علامات وبشائر ، وهى فيما تدعو إليه إنما تتفق مع مطالب الفطرة وتتلاءم مع العقل السليم يقول أكثم بن صيفى :

« إن الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا » (١٤) .

وقد استدل هرقل على صدق الدعوة بحال الداعية.يقول :
فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله (١٥) وكذلك النجاشى قالها مؤمنا :

---

(١٣) الإسلام والعقل ص ١٣٢ .
(١٤) التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٣٠ .
(١٥) فتح البارى جـ ١ ص ٣٩ .

إن هذا ـ والذى جاء به عيسى ـ ليخرج من مشكاة واحدة [١٦] وقالتها السيدة خديجة راضية مرضية .

وقالها أبو سفيان رغم أنفه .

ولهذا يركز القرآن الكريم على استيعاب حال الداعية كدليل على صدق النبوة بقول الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(المؤمنـون ٦٨ / ٧٠)

إذن ليست هناك شبهة من الشبهات قائمة على أصل محترم . إنما هى كراهيتهم للحق لأن الرسالة ستسلبهم قيمهم الاجتماعية الباطلة ، وتلغى أهواءهم المغرورة ، والحق لا يمكن أن يدور مع هواهم « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » .

ثم يتصدى القرآن بعد أن أثبت النبوة عن طريق حال الداعية فيجابه أسئلتهم التى يشاغبون بها ويصدون عن دين الله ببريقها يقول الله تعالى :

---

(١٦) فقه السيرة ص ١٢٠ فى هذا النص ، تعبيرات شتى ، راجع الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٨١ ، السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٣٣٧ .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

(الأنعام ٨ / ٩)

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ ﴾

(الإسراء ٩٠)

فرد عليهم فى صرامة :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٣ ﴾

(الإسراء ٩٤)

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ﴾

(الفرقان ٧ / ٨)

فيرد عليهم :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾

(الفرقان ١٠ / ١١)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

(الفرقان ٢٠)

وقالوا :

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ ﴾ .

(الفرقان ٢١)

ويجيب القرآن الكريم :

﴿ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(الفرقـان ٢١ / ٢٢)

---

(١٧) فى ظلال القرآن جـ ١٧ ص ١٣ جـ ١٨ ص ١٨ / ١٩ ، ٢٠ .

ولا يترك القرآن الجانب التاريخى كدليل على إثبات النبوة يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(القصص ٤٤ / ٤٦)

هل كان رسول الله ﷺ شاهدا ميقات موسى مع ربه ؟ حتى يعلم نبأه المفصل كما ورد فى سورة الأعراف وأن بينه وبين هذا الحادث لقرون وأجيال متطاولة ؟

هل كان رسول الله ﷺ مقيما فى أهل مدين يتلقى عنهم أخبارهم ؟

هل سمع رسول الله ﷺ نداء الله لسيدنا موسى (١٨) ؟

---

(١٨) فى ظلال القرآن جـ ٢٠ ص ٧٢ / ٧٣ ، راجع النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ٣٠/٣١ ، الإسلام والعقل ص ١٣٠/١٣٣ ، راجع التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٥٥/٥٩ .

إنه الوحى وإنها الرحمة التى شاءها الله جل شأنه لعباده لمن شاء منهم أن يستقيم ..

يقول ابن خلدون :

النفوس البشرية على ثلاثة أصناف : صنف عاجز بالطبع عن الوصول إلى الإدراك الروحانى .

وصنف متوجه بالحركة الفكرية نحو العقل الروحانى والإدارك الذى لا يفتقر إلى الآلات البدنية بما جعل فيه من الاستعدادات لذلك .. الخ .

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملة،جسمانيتها وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير فى لمحة من اللمحات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملأ الأعلى فى أفقهم وسماع الكلام النفسانى والخطاب الإلهى فى تلك اللمحة وهؤلاء هم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم(١٩) .

وهذا ما اصطلحت عليه سالفا بالبشرية السوية الخاصة بالأنبياء وذلك ما أثبته القرآن الكريم واستدلت بأحواله العقول الكريمة الفياضة بالنور والسناء الوضىء ، ولقد كان سيدنا محمد ﷺ هو قلادة هذا العقد النبوى الكريم وكان هو وحده ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

---

(١٩) مقدمة ابن خلدون جـ ١ ص ٣٥٧/٣٥٨ .

النقطة الثالثة : إن هذا إلا قول البشر : ـ

النبوة والقرآن نعمتان اختص الله جل شأنه بهما حبيبه سيدنا محمدا ﷺ وكلاهما مستند إلى الآخر فى الإثبات والتقرير فإذا ما ثبتت النبوة فقد ثبت أن القرآن من عند الله فلا نبوة بغير قرآن ولا قرآن بغير نبوة .

وقد استفاض القرآن الكريم فى إثبات النبوة لسيدنا محمد ﷺ وكانت تلك الاستفاضة كافية في إثبات أن القرآن من عند الله.غير أن لجاج القوم وعنادهم كان قد ملأ الدنيا بالصخب والضجيج مما ادعوه بهتانا وما نشروه بين القبائل فى المواسم والأعياد،فأخذ القرآن الكريم يواجه هذه الجحافل الظلماء ليكشف عن الحق .

وللقرآن منهجه الخاص في معالجة الأمور والقضايا .

ـ فهو يصور أولاً ما يدعيه المعارضون .

ـ ثم يصور موقف النبي ﷺ وهو موقف كاف في الرد على المعاندين .

ـ ثم يقيم البيان على أن القرآن وحى من عند الله جل شأنه بطريقين :

الأول : طريق النص ، إنه من عند الله ، وأن لا مدخلية للرسول فيه .

الثاني : بطريق التحدى وبهذا يتقرر حقيقة القرآن .

ـ ثم يأمر النبي ﷺ أن يستمر على ما هو عليه من الحق واتباع ما يوحى إليه من عند ربه ويؤكد الذين أوتوا العلم من قبله أنه الحق من ربهم .

أولاً : دعاوى المعارضة :ـ

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى فقد جمع القرآن الكريم دعاوى القوم وصورها فقال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(يونس ١٥)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

(الفرقان ٤ ـ ٥)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا

﴿ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

(سبأ ٣١)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(فصلت ٢٦)

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾

(الزخرف ٣١)

﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ (المدثر ٢٥)

وهى كلها آمال جوفاء وشوشرة أطفال لا يدركون مستوى مسئولية الخطاب والتعقل [٢٠]. ويكفى فى هذه المواجهة أن الرسول ﷺ يقر بأن القرآن وحى من عند الله يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيا يقضى بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التى جاءت بلسان صاحبها على نفسه ، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل ، ذلك أنها ليست من جنس الدعاوى فتحتاج إلى بينة وإنما هى من نوع الإقرار الذي يؤخذ به صاحبه .

---

(٢٠) راجع التصوير الفنى لمدلول هذه الآيات كما شرح فى تفسير ظلال القرآن جـ ٢٩ ص ١٩٠ .

ولا يتوقف صديق ولا عدو فى قبوله منه. إذ أية مصلحة للعاقل الذى يدعى لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة ؟ نقول أية مصلحة فى أن ينسب بضاعته لغيره وينسلخ منها انسلاخا ؟ على حين انه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة شأن ، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه، الذى نعرفه أن كثيراً من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه فى زينته من تلك الأثواب المستعارة .

أما إن أحدا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد [٢١] .

ثانياً : موقف النبي ﷺ :

وأما فيما يتعلق بالنقطة الثانية :

---

(٢١) راجع النبأ العظيم ص ١٤/١٥ لقد قدم المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز حول هذا الموضوع دراسة اكاديمية ممتازة دافع فيها عن القرآن الكريم فجزاه الله خيراً غير ان هذا المنهج مع امتيازه وجودته إسلامياً وعلمياً فإنه يغاير من ناحية الطريقة لا من ناحية الهدف ولا من ناحية الموضوع الأسلوب الذى انتهجه فى إبراز ثمار العهد المكى فى جوها القرآنى وحده .

فقد أقر النبي ﷺ بأن القرآن وحى من عند الله ، يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾

(الأنعـــام ١٩)

﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(الأنعـام ٥٠)

﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

(الأعـراف ٢٠٣)

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(يونـــس ١٥)

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ

رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

(الكهف ١١٠)

﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

(الأنبياء ١٠٨)

﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ (ص ٧٠)

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾

(فصلت ٦)

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾

(الأحقاف ٩)

ثالثاً : الدليل على أن القرآن وحى :

وأما فيما يتعلق بالنقطة الثالثة :

فمع هذا الإقرار الكافى في صد غارات الشوشرة التى يشنها الأعداء فإن الله جل جلاله يتصدى للمعركة مع

الكافرين على حد المنطق القرآنى

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾

(القلم ٤٤)

فيقرر القران أن الله أوحى القرآن من عنده إلى نبيه محمد ﷺ بطريقين :-

الطريـق الأول : طريق النص أنه من عند الله :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(هــود ٤٩)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(يوســف ٢ / ٣)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(الحـجـر ٨٧)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(الإسراء ٨٢)

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(الإسراء ١٠٦)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾

(الكهف ١ / ٢)

﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

(طه ١ / ٢)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

(طه ١١٣ / ١١٤)

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾

(الفرقان ١)

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾

(الفرقان ٦)

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

(الشعراء ١٩٢ / ١٩٩)

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

(سبأ ٦)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾

(القصص ٨٥)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾

(العنكبوت ٤٧)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

(السجدة ٢ ـ ٣)

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

(النمـــل ٦)

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

(فاطـــر ٣١)

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

(يـــس ٦٩)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾

(الزمـر ١ ــ ٢)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(غافر ٢)

﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(فصلت ٢ ــ ٣)

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾

(فصلت ٤٣ ــ ٤٤)

﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ﴾

(الشـــورى ٣)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ (٧) ﴾

(الشـــورى ٧)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) ﴾

(الزخـــرف ٣)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) ﴾

(الدخـــان ٣)

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾

(الجاثية ٢)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(الأحقاف ٢)

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾

(النجم ٢ ـ ٥)

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ ﴾

(الرحمن ١ ـ ٢)

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(الواقعة ٧٧ ـ ٨٠)

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(الحاقة ٤٠ ـ ٤٣)

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

(القيامة ١٦ ـ ١٩)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ

﴿ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(الإنسـان ٢٣ ــ ٢٤)

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ (القدر ١)

هذه الآيات الجمة التى حشدها القرآن الكريم هى نصوص تثبت أن الله جل شأنه هو الذى أوحى القرآن الكريم إلى عبده ونبيه الخاتم سيدنا محمد ﷺ، وهى كافية في مواجهة ما يثيره الحاقدون .

ب ـ طريق إثبات أن لا مدخلية للنبى ﷺ فى شىء من القرآن الكريم بالنص القرآنى :

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(القصص ٨٦)

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(الحاقـة ٤٤ ــ ٤٧)

الطريق الثانى ـ التحدى :

ادعى القوم أن القرآن الكريم حديث مفترى،وصور القرآن الكريم هذه المقالة ورد عليها بما يفحم أصحاب اللجاج والعنت. يقول الله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(هـود ٣٥)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(السجدة ٣)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الشورى ٢٤)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾

(الأحقاف ٨)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الطور ٣٣)

فى هذه الآيات وأمثالها في القرآن الكريم رد عام للدعوى المشوشرة المهرجة التى افتعلها القوم ظلما وعلوا ، ومادام الأمر كذلك وأنهم رددوا هذه الدعوى التى لا يمكن إقامة دليل عليها ، فقد تصدى الله جل جلاله لهم وتحداهم ، وبلغ رسوله الكريم الأمين الصادق المصدوق أن يأتوا بمثله ؟

قال الله تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (يونس ٣٨)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(هود ١٣)

﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور ٣٤)

وعلى حسب وجود هذه الآيات فى سورها[٢٢] فقد تحداهم الله

---

(٢٢) حول ترتيب هذه الآيات جاء حديث طويل فى تفسير المنار جـ ١٢ من ص ٣٢ إلى ص ٤١ كذلك كتب الدكتور محمد أحمد الغمراوى عدة مقالات فى مجلة الأزهر خاصة عدد ربيع الأول سنة ١٣٣٩ هـ من ص ١٨٢ إلى ص١٨٩ وعدد ربيع الآخر سنة ١٣٨٩ هـ من ص ٢٤١ إلى ص ٢٥٤ وفى ظلال القرآن جـ ١٢ ص ٣٩ تعليق على ترتيب الآيات الخاصة بالتحدى ولكنى فضلت إيراد الآيات فى جوها القرآنى مصوراً لمنهج القرآن بعيداً عن مناقشات العلماء .

أولًا أن يأتوا بسورة مثل سورة من القرآن وسمح لهم أن يستعينوا بمن شاءوا واستطاعوه إن كانوا صادقين فى ادعائهم الافتراء ؟

ثم تحداهم بعشر سور مفتريات ليصححوا زعمهم أن القرآن مفترى،وأباح لهم الاستعانة بمن شاءوا وقدروا معه على خلق عشر سور مفتريات .

والذى يلاحظ هنا أن التحدى الأول ليس فيه قيد الافتراء فوقع التحدى بسورة واحدة للدلالة على أنه غير مقدور للبشر الاتيان بشيء مثله .

والتحدى الثانى فيه قيد المفتريات فوقع التحدى بعقد كامل لأنه لو كان مفترى كما يزعمون لكان أمره سهلا مقدورا إذ ما يفعله واحد بنفسه يمكن أن يفعله الزاعمون.بله أنه لأمر جد يسير إذا استعانوا بمن يشاءونه من البشر .

فترقى القرآن من التحدى بسورة واحدة إلى عشر ملاحظ فيه هذا القيد فكأنه تنازل مع الزاعمين من التحدى بالقرآن صافيا ربانيا إلى زعمهم هم.فلئن كان حقاً كما يزعمون هو قرآن مفترى فما أيسر أن يجاء بمثله ويجاء بمثله كثير لا قليل فلما عجزوا بان وتأكد أنه ليس مفترى ولهذا يأتى التحدى الأخير كاملا كليا جامعا فليأتوا بحديث مثله ، مثله مطلقا فى الصفاء والنقاء كما جاء به الوحى وعجزوا عنه فى التحدى الأول ، أو مثله على حسب زعمهم فى ادعاء الافتراء كما جاء في التحدى

الثانى وعجزوا عنه أيضاً ، فثبت بذلك التحدى أن القرآن الكريم وحى من عند الله وأنه تنزيل من حكيم حميد نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

وإذن فليتضح القرآن الكريم حقيقة الأمر يقول الله تعالى عقب هذه الآيات على التوالى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [23]

(يونس ٣٩)

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(هـود ١٤)

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(الطـور ٣٥ ـ ٣٧)

فأظهرت آيات سورة الطور علة نكرانهم لربانية القرآن ، انهم لا يوقنون ولا يؤمنون .ذلك لأنهم لا ينكرون الخالقية لله ولا يجحدون أن السموات والأرض وهم أنفسهم من خلق الله

---

(٢٣) راجع تفسير القرطبى ص ٣١٨٣ / ٣١٨٤ .

جل شأنه ، ولكن من أغلق قلبه عن الإيمان حبب لنفسه إنكار الحق ولو كان الحق أشد نصاعة من وهج الشمس فى زابعة النهار .

وإذن فكل ما يدعيه القوم بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ ﴾

(الحجر ٦)

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ (النحل ١٠٣)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ (المؤمنون ٧٠)

﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ ﴾ (الفرقـــان ٥)

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان ٣٢)

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾

(الزخرف ٣١)

﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝١١ ﴾

(الأحقاف ١١)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ ﴾ (الطـور ٣٠)

﴿ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (القلم ٥١)

كل ذلك وأمثاله من دعاوى القوم إن هو إلا إفك وحسد من عند أنفسهم .

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(يوسف ١١١)

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(يونس ٣٧)

وخاتمة المطاف :

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(الإسراء ٨٨)

والنقطـــة الأخـــيرة :

رابعـاً ـــ اتبع ما أوحى إليك من ربك :

والجو القرآنى نفسه شاهد صدق على أن القرآن من عند الله وأن سيدنا محمداً ﷺ تلقاه عن ربه وأمر باتباع ما أوحى إليه .

يقول الله تعالى :

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الأنعـــام ١٠٦)

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (يونـس ١٠٩)

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (النـحل ١٢٣)

﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾
(الإسـراء ٧٣ / ٧٥)

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الكهف ٢٧)

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ ﴾ (مريم ٩٧)

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (العنكبوت ٤٥)

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾

(الزخرف ٤٣)

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾

(الجن ١)

ـ هذه الحقيقة لا ينكرها الذين أوتوا العلم.يقول الله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(الأنعام ٢٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ (الأنعام ١١٤)

﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ (الإســراء ١٠٧)

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ ﴾

(الشعـراء ١٩٧)

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

(القصص ٥٢ / ٥٣)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (العنكبـوت ٤٧)

﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (العنكبـوت ٤٩)

وبهذا ثبت أن القرآن وحى من عند الله،وبهذا أيضاً ثبت أن محمدا رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً .

يقول ابن خلدون : في الغالب تقع الخوارق مغايرة للوحى الذى يتلقاه النبي ، ويأتى بالمعجزة شاهدة بصدقه ، والقرآن هو نفسه الوحى وهو الخارق المعجز فشاهده بعينه لا يفتقر

إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات ، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه ، وهذا معنى قوله ﷺ : « ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحى إلىّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

يشير إلى أن المعجزات متى كانت بهذه المشابهة فى الوضوح وقوة الدلالة وهى كونها نفس الوحى ، كان الصدق لها أكثر لوضوحها ، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة [٢٤] ، أ هـ .

وأنا أشهد أن محمدا حقاً وصدقاً لرسول الله وأن القرآن كتاب الله أوحى إليه ليكون للعالمين مبشراً ونذيراً .

---

(٢٤) مقدمة ابن خلدون جـ ١ ص ٣٥١ .

(عقيدة البعث)

أرقى عقلية إنسانية هى العقلية التى تتعشق الخلود وترى أن الحياة السرمدية هى الحياة الثانية بعد الموت،وأن العدل المطلق ، والسعادة النقية لها يوم مشهود بعد هذه الحياة المشوبة بالظلم والكدر ، وما الموت إلا رحلة انتقال بين حياتين : حياة فانية وحياة أبدية يقام فيها العدل ، وتنعم النفوس الطيبة بالسعادة الأبدية .

ولقد كانت العقلية المصرية من أولى العقليات المؤمنة بهذا السمو من الخلود بعد الموت ، وكانت العقلية العربية فى أشعارها ومعلقاتها ، وأحاديث سمرها في هجعات الليل حيث تطل أضواء القمر الهادئة على موجات الرمال في سفوح الجبال ووديانها ... كانت كذلك تؤمن بالبعث بعد الموت ولكن العناد في المناقشة مع سيدنا رسول الله ﷺ دفع الناس إلى العناد .. وتصدى لهم القرآن الكريم وحشد كل فنون الأدلة والبراهين ليدفعهم من طينية الفكر الدنيوى الثانى إلى شفافية الفكر الطموح الخالد .

وكان قصد القرآن الكريم رحيما وهو يأخذ بيدهم من وهدة الانحطاط إلى آفاق السمو الرفيع ، وعلى عادة القرآن الكريم في معالجته للقضايا فقد عالج قضية البعث مع كفار قريش على النحو التالى : ـ

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الجاثية ٢٤)

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ (ق ٣)

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾
(الواقعة ٤٧)

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ (القيامة ٣٦)

تلك مجموعة من آراء القوم تصورها هذه النماذج من آيات القرآن الكريم ...

الثانى ـ الرد على المعاندين[٢٥] .

أ ـ يرد الله عليهم :

﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾
(الإسراء ٥٠ ـ ٥٢)

---

(٢٥) نؤثر فى هذا المقام إيراد الآيات القرآنية دون شرحها أو بسط تفسيرها اظهاراً لمنهجية القرآن الكريم فى طريقة تدليله وحثاً للقارىء على ان يتدبر القرآن الكريم .

ـ صور مقالات المشركين حول مفهوم البعث .
ـ ثم نوع الرد عليهم فى اتجاهات عدة :ـ
أ ـ رد عليهم في جو السلطان الإلهى .
ب ـ رد عليهم في جو الحكمة من البعث .
جـ ـ ثم نبه غفلتهم إلى المشاهدات الحسية التى لا يختلف فيها اثنان وجعلها أصلاً لإدراك البعث .

الأول ـ تصوير مقالات المشركين :

* في الجانب الأول يقدم القرآن الكريم تصويراً لدعاوى القوم، نماذج هذه الآيات
قول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ﴾
(الإسـراء ٤٩)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾
(النمـــل ٦٧)

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (الصافات ١٦)

﴿ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾
(الدخـــان ٣٥)

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

(الإسـراء ٩٩)

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(الأنبياء ١٠٤)

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(لقمان ٢٨)

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

(الصافات ١٨ / ٢١)

﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(الدخـان ٣٧ / ٤٠)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الأحقـاف ٣٣)

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٥ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ۝١٦﴾

(ق ١٥ / ١٦)

إن المسألة سهلة بسيطة إذا قيست بمقاييس السلطان الإلهى :

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ۝١٧﴾

(فاطر ١٦ / ١٧)

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾

(يس ٨٢)

ب - يبرز القرآن الكريم الغاية من البعث.إنها إقامة العدل فى دار الجزاء حيث توفى كل نفس ما كسبت :

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾

(القارعــة ٦ / ١١)

وحول هذه الحكمة تأتى نماذج من آيات الله البينات يقول الله تعالى :

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(يونس ٤)

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(النحل ٣٨ / ٣٩)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

(سبأ ٣ / ٥)

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾

(النجم ٣١)

جـ - ويعرض القرآن الكريم دليلين :

دليلا من المشاهدة .

ودليلاً من العقـل .

أما دليل المشاهدة ففى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

(فصلت ٣٩)

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾

(ق ٧ / ١١)

فيجرهم القرآن الكريم إلى ملاحظة هذه العملية الدائمة المتكررة فيما حولهم من الأرض فكذلك الخروج من القبور على هذه الوتيرة السهلة فهم فى ملكوت الله شىء من الأشياء التى ينزل عليها الماء فتحيا به ويجف عنها فتموت ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

وأما دليل العقل والفكر ففى آيات سورة يس :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾

(يس ٧٨ / ٨٢)

وأعرج فى استخلاص عقلياتها على ما جاء فى كتاب أستاذنا الإمام الدكتور عبد الحليم محمود :

١ - وجود الشىء من جديد بعد كونه وتحلله للسابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة لا سيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم وإن كان لا يوجد بالنسبة لله شىء هو أسهل وشىء هو أصعب ، هذا الدليل موجود في قوله تعالى :

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ﴾ (يس ٧٩)

٢ - ظهور الشىء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن وواقع تحت الحس ، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى وذلك على أساس المبدأ الأكبر وهو أن الشىء يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الخالق ، وهذا الدليل العقلى موجود فى قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ (يس ٨٠)

٣ ـ خَلْقُ الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد إن لم يكن هذا الدليل موجود فى قوله تعالى :

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ (يس ٨١)

٤ ـ الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لا يحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافا للفعل البشرى الذى لا يتم إلا فى زمان ويحتاج إلى مادة تكون موضوع الفعل وهذا الدليل موجود فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (٢٦)

(يس ٨٢)

والقرآن نفسه يشير إلى هذه الأدلة ففيما يتعلق بالدليل الأول يقول الله تعالى :

﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ ﴾

(الإسراء ٥١)

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ ﴾

(الأنبياء ١٠٤)

---

(٢٦) التفكير الفلسفى فى الإسلام مع تصرف ص ٧٣ / ٧٤ .

أما فيما يتعلق بالدليل الثانى يقول الله تعالى :

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

(الواقعة ٧١ / ٧٣)

وفيما يتعلق بالدليل الثالث ، يقول الله تعالى :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(غافـر ٥٧)

وفيما يتعلق بالدليل الرابع يقول الله تعالى :

﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ (ق ١٥)

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾

(النحـل ٤٠)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

(الـروم ٢٧)

وبذلك يثبت البعث ويستقر عقيدة راسخة فى نفوس الصادقين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ولكن القرآن الكريم لا يترك المسألة تمر دون أن يفضح بواعث هذا الإنكار إنهم ينكرون البعث مع وجود أدلة يشاهدونها بالعين وينتفعون بها ، ويمكن لعقلهم إذا شفى من دائه أن يتعقلها ، ولكن العلة أنهم ألفوا ثقافة ودأبوا على تقاليد ربطوا عقولهم وأعناقهم في حبالها فحقت عليهم لعنة الله ، إنهم يقولون مقالة السالفين الكافرين من قوم نوح .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(المؤمنـون ٣٥ / ٣٧)

بمثل هذا المنطق الأعمى قال كفار مكة :

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(المؤمنون ٨١ / ٨٣)

فليس هناك باعث على الجحود والكفر وإنكار البعث إلا تلك المقالة القديمة التى رددها السالفون من المشركين وهم على آثارهم يهرعون ، أما يوم البعث فهو حق لا ريب فيه :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ

ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾

(غافـر ١٦ / ١٧)

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(الزمـر ٦٨ / ٧٠)

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾

(الزلـزلة ٦ / ٨)

ولله عاقبة الأمـــــور ..

النتائج

أ ـ نشر لواء التوحيد .

ب ـ بناء الدولة الإسلامية .

جـ ـ تحويل الخصوم إلى أتباع مجاهدين .

تقاس الدعوات ومناهجها ومبادؤها بالأهداف التى اهتدت إليها وحققتها حسب ما دعت إليه دون تبديل أو تغيير .

وكل دعوة توفر لها المنهج والوسائل والسلطة التنفيذية ، ثم لم تستطع أن تقدم النتائج الطبيعية حسب مبادئها ، فهى دعوة بعيدة عن الفطرة وغير قابلة للتنفيذ .

ولقد أعلنت الدعوة الإسلامية مبدأ توحيد الله منذ العهد المكى وأعلنت كرامة الإنسان ووحدته فى مساواة كاملة في الخلق والحقوق والواجبات .

ومن خلال التشريعات المنهجية فقد طالبت بسلطة تحمى حقوق الله فى ذمة البشر وفى كل مرحلة من مراحل العمل الإسلامى تدعى الدعوة أنها لخير الناس طرا .....

فهل صحيح أن الدعوة الإسلامية حسبما عرضناه في المراحل السالفة استطاعت أن تحقق غاياتها وفقا لما أعلنته من مبادىء وأيديولوجيات ؟؟

إن الجواب الواضح الصريح يؤكد أن الدعوة الإسلامية قد استطاعت أن تنجح في كل غاياتها وبخاصة في :

أ - نشر لواء التوحيد

الحقيقة العليا :

الحقيقة العليا التى حملها الأنبياء جميعاً هى : أن الله تعالى واحد لا شريك له فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، وقد طمس بعض أتباع الرسل السابقين هذه الحقيقة فجاء سيدنا محمد ﷺ ليجليها ويدفع عنها ركام العبث الجاهلى الذى استحدثه السابقون للهوى والتفكه الخاص .

وتنطق آيات كثيرة في القرآن الكريم بهذه الحقيقة العليا ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وهو طلب توجيه يذكر بالحقيقة العليا التى يقوم عليها أمر الأنبياء جميعاً ، وهى أساس جميع مطالب الحياة ، وهى ركيزة التوجيهات والتكاليف التى ستأتى ، ثم هى الغاية العليا للإنسان في حياة الدنيا والآخرة

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الذاريات ٥٦ ـ ٥٨)

فالنص يعطينا حقيقة كبرى وهى أنه لا يستقيم للبشر حياة فى الأرض بدون إدراك الحقيقة العليا وهى عبادة الله الحق الواحد الأحد الفرد الصمد ، بل إن النص ليجعل وظيفة

الإنس والجن قائمة على أداء حق العبادة لله سبحانه وتعالى ، فمن قصر فى العبادة فقد أبطل غاية وجوده ، وصار شيئاً من الجماد أو الأنعام فقد أصبح بلا وظيفة،وأصبحت حياته فارغة من معناها الجليل خاوية من وظيفتها الأساسية وساعتها فقد انفلت من عقال الناموس الذى ينظم له وجوده فى الحياة وينقله إلى الخلود الأبدى المرضى عنه .

والنص يعطينا صورة فسيحة لمعنى العبودية لله ، إنها ليست فقط فى إقامة الشعائر بل هى الخلافة فى الأرض ، فقد قال الله تعالى للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . فالخلافة فى الأرض هى عمل هذا الكائن البشرى ، وهى تقتضى ألواناً من النشاط الحيوي في عمارة الأرض وتحتاج عمارتها إلى التعرف على قوانينها وقواها ومخزونها وطاقاتها وذخائرها ومكنونها ، ولن تتحقق هذه الخلافة إلا إذا تحققت العبودية لله الواحد الأحد ، فهذه العبودية لله هى قاعدة الفلاح ، وهى الحقيقة العليا التى تيسر كل شىء في الاستخلاف على هذه الأرض .

ومن ثم يعرف الإنسان العاقل أن حضارته الكريمة التى استخلف من أجلها لن تبلغ شأوها الراقى النبيل إلا إذا قامت على ركيزة من الحقيقة العليا وهى :
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ والعلم بأن الله الواحد يتمثل فى :

(أ) استقرار العبودية لله وحده في النفس الإنسانية استقراراً يميز الإحساس بالحاجة إلى الله الواحد الأحد عن جميع القوى المغايرة إلى درجة التأكد من أنه لا يجرى شيء فى هذه الحياة إلا بإرادة الله وقدرته .

(ب) التوجيه الكلى إلى الله فى كل حركة وسكون على نمط التوجيه القرآنى

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

(الأنعام ١٦٣)

وقد جاء فى السنة المطهرة : « يا ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » .

(رواه أحمد)

فالوظيفة إذن : إسلام كامل لا يستبقى في النفس الإنسانية ولا فى الحياة كلها بقية ما لا تعبد الله ، فهى تسبيحة التوحيد الخالص المطلق، والعبودية الكاملة التى تجمع كل تحرك فى الوجود لتخلصه لله عبادة نقية .

الشهادة عليها :

ولقد شهد الله على هذه الحقيقة ، وشهد على أن الذى جاء به محمد هو الحق ، وأن الله سيظهره على الدين كله

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ ﴾

(آل عمران ١٨)

فشهادة الله هنا مسبوقة ليترتب عليها مستلزم لها وهو : أن الله جلت قدرته لا يقبل من العباد ـ وبخاصة الذين يدعون الإيمان ـ إلا عبودية خالصة لله متمثلة فى الإيمان الصحيح الذى جاء به محمد ﷺ . وتشير الآية إلى ملازمة الألوهية للقسط فهو سبحانه وتعالى الحى القيوم على كل شىء في الوجود ، وقيوميته قيومة قسط وعدل فلا يتحقق عدل مطلق إلا مع هذه الحقيقة العليا وهى شهادة التوحيد الخالص ، ولذلك عقب بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ ورتب على هذه العندية أن ما عليه أهل الكتاب من الخلاف يبعدهم عن الإسلام الذي رضيه الله تبارك وتعالى .

فالألوهية واحدة ولا شأن للإنسان بنعتها بل عليه أن يستقبل الوحى الذى يأتى من عندها ، فمعنى العبودية لله هى

الانصياع إلى هذه الألوهية الواحدة فهى المصدر،فلا تناقش ولا يقترح عليها ولا يتدخل أحد فى قيوميتها ، فالاختلاف بين أهل الكتاب مبعثه الخلط والهوى والمصلحة لا العلم ولا التفكير ولا المنطق الحميد .

وقد أعلن الله هذه الشهادة فى كثير من الآيات القرآنية :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(الفتح ٢٨)

يقول المفسرون : أرسله بالعلم النافع والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعى صحيح والعمل الشرعى مقبول فإخباراتها حق . وإنشاءاتها عدل ، ويظهره على الدين كله ، على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين ، وكفى بالله شهيدا ، أى أنه رسوله وناصره (٢٧) .

وآيات مثلها :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (التوبة ٣٣ ، الصف ٩)

وهذه الشهادة لها واقع عملى ، فقد أظهر الله هذا الدين على اليهود وعلى النصارى على نحو ما ذكرناه آنفا ، كما أظهر

---

(٢٧) ابن كثير جـ ٤ ص ٢٠٣ .

الله هذا الدين في العالم كله : فليس هناك قارة ولا دولة عظمى إلا وفيها الإسلام يغلب بنظمه الرفيعة سائر النظم الوضعية ، وكلما أرادت القوانين الوضعية أن تقترب من الفضيلة والحق عدلت نفسها فإذا بها تقترب من النظام الإسلامي ، ومع جحافل المخططات منذ عدة قرون التى تحاك لضياع الإسلام من كثير من البلاد فى آسيا وأفريقيا. إلا أن الإسلام مازال حيا ولو فى قلة من أتباعه. لكنه كنظام فإنه ظاهر برحمته وعدله وإحسانه واحترامه للكيان الإنسانى على كل اللوائح والقوانين .

والنبي ﷺ شاهد على هذه الحقيقة العليا .

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

(الأنعام ١٩)

ففى هذا النص مواجهة للمشركين ليبين لهم الحقيقة العليا والغاية الأساسية للإنسان فى وجوده : إن الله سبحانه وتعالى هو أكبر شهادة ، فهو الذى يقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، والله يعلن ويأمر نبيه ﷺ بالشهادة على هذا الإعلان : إنه واحد فإن شهد المشركون بغير هذا فقل : لا أشهد ، ولإثبات

الحقيقة العليا قل : إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون .

ولقد أقر القرآن الكريم من قبل فى سورة البقرة.أن هذه الحقيقة العليا قد أقر بها محمد ﷺ

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾

(البقرة ٢٨٥)

فالذى تلقاه محمد ﷺ من ربه وآمن به هو ومن معه من المؤمنين هو الحقيقة العليا : الله واحد لا شريك له ، فهو الإيمان السليم ، ثم هو الايمان الشامل الذى يليق بالأمة الوارثة لدين الله ، وهى الأمة القائمة على دعوته فى الأرض إلى يوم القيامة .

فهى فى إيمانها بالله تكون الأمة التى تحمل فى حنايا صدورها الحقيقة العليا الصحيحة،ثم هى بإيمانها ضاربة بالجذور البعيدة فى أعماق التاريخ لأنها تؤمن بجميع الرسل والأنبياء السابقين .

وهى أمة ضارية فى رفعة السمو الغيبى.فهى تؤمن بالملائكة والكتب السابقة التى أوحى الله بها إلى السابقين من الأنبياء والمرسلين .

فهى الأمة التى تقود موكب الدعوة بالإيمان الصحيح وبثبات تحرس الإيمان فى مستقبل التاريخ إلى قيام الساعة . تحرسه وهى تسمع له وتطيع ، ولا تطيع أحداً غيره أبداً .

ولقد شهد العقلاء من أهل الكتاب والحكمة من قبل :

- لقد شهد ورقة بن نوفل .
- وخديجة بنت خويلد .
- وقس بن ساعدة الأيادى .
- وبحيرا .
- ونسطورا .
- والنجاشى .
- وهرقل .
- وعكرمة .
- وصفوان .
- وأم كلثوم بنت عقبة بن معيط .
- ومخيريق .
- ثم كعب بن أسد قبيل أن يموت .. !!

شهدوا جميعاً أن الذى جاء به ﷺ هو حقيقة التوحيد الخالص الذى قاد موكبه جميع الأنبياء ثم ختمه ﷺ .

ـ العمل لنشر هذه الحقيقة العليا :



لقد كان المشوار شاقاً وصعباً بين الأمر بهذه الآية

والجيش الذى قاده النبي ﷺ إلى تبوك ، فقد كانت الأرض فاسدة كل مفسدة فى التصور الاعتقادى ، والأسس الاجتماعية . فكانت الديانات خرافات وكانت أسس العلاقات نعرة وحمية الجاهلية والقبلية،فقام عليه الصلاة والسلام ليبلغ الناس كافة بمنهج عمل رسم به أسلوب التبليغ وقواعده ومنهجيته،وانتقل عليه الصلاة والسلام من الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة إلى القتال فقال عليه الصلاة والسلام: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

(متواتر متفق عليه)

وكان القتال منهجياً له قواعده وأساليبه وأحكامه ، فسبقته الدعوة إلى الإيمان بالحقيقة العليا أو الإذعان لسيادتها بدفع الجزية ، أو الحرب ، فهى ليست مفروضة على كل حال ، بل هى مشروعة لضرورة الحال،وقد جهز النبي ﷺ جيوشاً كثيرة لتبليغ الدعوة وتأديب المارقين على الحقيقة العليا المفسدين فى الأرض ، وقد عدها ابن سعد فى الطبقات فجعلها سبعا وعشرين غزوة ، وسبعا وأربعين سرية .

« وكانت الغزوات التى قاتل فيها تسعا فقط هى . بدر

القتال ، أحد ، المريسيع ، الخندق ، بنى قريظة ، خيبر ، حنين ، الطائف ، وفتح مكة » [٢٨] .

غير أنى لا أرى أن النبي ﷺ كان قد حارب يوم فتح مكة وإن وقع فيها قتال بدأ به المشركون سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه .

ولقد حدد الله له الغاية من هذا القتال كما حدد النبي ﷺ للمجاهدين الغاية منه كذلك .

(١) قال الله تعالى :

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ۝٢٩ ﴾

(التوبة ٢٩)

فالفئات التى تقاتل هى :

(أ) كل من لم يؤمن بالله واليوم الآخر .

(ب) كل من لا يحرم ما حرم الله ورسوله .

(جـ) كل من لا يدين بدين الحق من أهل الكتاب .

وغاية القتال أحد أمرين :

(أ) إما أن يذعنوا لله ولرسوله ويسلموا .

---

(٢٨) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٥ / ٦ .

(ب) أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

والذي يلاحظ فى الآية أن القتال ليس مبعثه فقط الإيمان بالله ورسوله.بل أيضاً مبعثه الخضوع لما شرعه الله ورسوله بمعنى أنه لا يليق بالدولة الإسلامية أن تترك فساد الأخلاق يستشرى من سلوك غير المسلمين فكما تحارب الكفرة على العقيدة تحاربهم على الخضوع للسيادة الشرعية لله ولرسوله .

وقد حكمت الآية كذلك أن أهل الكتاب لا يدينون دين الحق ما لم يؤمنوا بما جاء به سيدنا محمد ﷺ .

ولقد قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾

(الأنفال ٣٩)

وقد وضحت آية التوبة المراد من الضمير فى قوله تعالى فاتلوهم :

فقال الله تعالى :

﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(التوبة ١٢)

فالقتال في الإسلام له أهمية وغاية هى أن يكون الدين كله لله : إما قبولا بالإرادة المختارة والمحبة القلبية لمن اكتفى

بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإما خضوعاً وامتثالا لسيادة هذا الدين الخاتم .

ولقد أسلمت العرب كلها يوم أن رأت قريشا قد انصاعت للإيمان ، وأسلمت مكة كلها يوم أسلم أبو سفيان وهند وعكرمة وصفوان فجاءوا جماعات يستغفرون ويعلنون الإسلام .

وكذلك أسلمت أطراف الجزيرة العربية يوم أن رأت الأكاسرة والقياصرة قد خابت مساعيهم في مواجهة هذا الدين .

فالقتال الهجومى في الإسلام يتوجه إلى رؤوس الكفر الذين يشكلون العقابيل الكئود التى تحجب الناس عن الحق والنور والصراط المستقيم .

ولقد بلغ النبي ﷺ أطراف الحياة المعاصرة لحضرته الشريفة دين الله ودعوة الله على نحو ما هو مفصل في البعوث والوفود والرسائل والسرايا والغزوات والعمال والمعلمين[٢٩] .

والرسول ﷺ يحدد لنا الغاية من الجهاد فى سبيل الله فيقول : « انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية

---

(٢٩) يراجع كتابنا : الجهاد فى الإسلام منهج وتطبيق .

ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

(رواه البخارى والنسائى وابن ماجة)

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« إن من جاهد يبتغى عرض الدنيا فلا أجر له » .

(رواه أبو داود وأحمد)

« من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله » .

(رواه البخارى وابن ماجة)

« إن النار أول ما تسعر بالعالم والمنفق والمقتول فى الجهاد إن فعلوا ذلك ليقال » .

(من حديث عن مسلم رواه الترمذى)

فالعمل على تبليغ الدعوة لابد فيه من الإخلاص المطلق لوجه الله الكريم ، ونشهد أن الصحابة الأجلاء قد رضى الله عنهم بإخلاصهم فى جهادهم لتكون كلمة الله هى العليا وقد حقق الله لهم الغاية فأرسلوا خيل الله عبر البحار والديار حتى كانت كلمة الله عليا فوق الأرض كلها .

توريث هذه الوظيفة : ؟

تكاليف تبليغ الدعوة على قدر موضوعها ومحتواها ، والدعوة الإسلامية تحمل للبشرية جمعاء الحقيقة العليا

والغاية الرئيسية لوظيفة الإنسان على وجه هذه البسيطة مادام هناك بشر يحيا فوق ظهرها .

فهى رسالة عالمية بالموضوع .

وهى رسالة عالمية بالغاية .

والتكليف بتبليغها يأخذ هذه الصفة : فهو تبليغ عالمى ولذلك ورث الله هذه الأمة مسئولية التبليغ كما ورثها النبي ﷺ من بعده كذلك مسئولية التبليغ .

(أ) يقول الله تعالى :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾

(فاطر ٣٢)

يقول ابن كثير :

جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا وهم هذه الأمة ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال :

— فمنهم ظالم لنفسه : وهو المفرط فى فعل بعض الواجبات .

— ومنهم مقتصد : وهو المؤدى الواجبات .

ـ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله : وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات[30] .

وهذا التنويع للأمة الإسلامية التى أخرجت لتكون خير أمة أخرجت للناس جاء بعد حقيقة ثابتة تتعلق بقيمة الكتاب الذى ورثه الله تعالى لهذه الأمة فى قوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٣١ ﴾

(فاطر ٣١)

فدلائل الحق على هذا الكتاب واضحة يعرفها أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم ومن دلائل أنه الحق تصديقه لما بين يديه من الكتب السابقة وهيمنته عليها ، وقد نوهت بذلك جميع الرسالات السماوية ، غير أن هذا الكتاب لن ينقطع ذكره ، ولن تتوقف شريعته مادام الكون موجوداً فقد ورث الله هذا الكتاب للذين اصطفاهم وهم أمة سيدنا محمد ﷺ الممتدة إلى يوم القيامة .

والواقع الذى عاشته الدعوة طوال القرون الماضية يشهد بصحة هذا التقسيم . ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله .

(ب) والنبي ﷺ يكلف هذه الأمة بالتبليغ عنه كل حسب

---

(٣٠) ابن كثير جـ ٣ ص ٥٥٤ .

طاقته وقدرته ومعرفته ، فالكل مسئول عن تبليغ الرسالة حسب امكاناته ، وقدراته ، ومسئولياته وما تحت يديه من سلطان ، أو مال ، أو جاه ، أو حيلة صادقة ، يقول النبي ﷺ :

« بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله »[٣١] .

« بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » .

(رواه البخارى والترمذى وأحمد)

والمراد من التحديث عن بنى إسرائيل رواية تاريخ بنى إسرائيل لا أن نأخذ منهم أحاديث عن رسول الله ﷺ ، قال الشيخ المناوى : حدثوا عن بنى إسرائيل بما بلغكم عنهم مما وقع لهم من الأعاجيب ولا ضيق عليكم فى التحديث به إلا أن يعلم أنه كذب »[٣٢] .

« من أشد أمتى لى حباً من يكونون بعدى يود أحدهم لو رآنى بأهله وماله » .

(رواه مسلم)

ومعنى الحديث أن أناسا من أتباع سيدنا رسول الله ﷺ يحبونه فيؤدون رسالته وهم يتمنون أن لو جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم .

---

(٣١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٦ .

(٣٢) شرح الجامع الصغير للعلامة المناوى جـ ١ ص ٤٣٥ .

ولقد انتشرت كتائب الجهاد عصر النبي ﷺ وساحت سفراؤه في كل صوب وحدب ، وجاءته الوفود من كل صقع وجهة فبلغ الرسالة شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً وأوصلها إلى الفارسيين ، والرومانيين ، والمصريين والأحباش ، والشام ، والأحرار ، والعبيد ، والسادة ، والسوقة ، والملوك ، والأمراء ، والعامة ، والسابلة ، والأغنياء ، والفقراء ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس وغيرهم ثم ورثناها لمن شاء أن يحظى بالمعية فى العمل والجهاد والشفاعة يوم القيامة .

ب ـ بنـاء الدولـة الإسـلاميـة

كيف تقـام الـدول : ؟

نحن نشاهد فى العصر الحديث كيف تقام الدول ... والوضع الحديث هو نفسه الوضع القديم باختلاف فى الوسائل حسب ظروف كل عصر ، لكن مضمون ومحتوى كيفية إقامة الدول فى العصر الحاضر هو كيفيتها فى العصر القديم :

الهجرة الجماعية .

أو الثورة العسكرية .

أو وراثة الملـك .

يقول الكاتبون في تاريخ العصور الوسطى :

وبتولى الإمبراطور ديكيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١) منصب الامبراطور بدأت سلسلة متصلة الحلقات من الأباطرة العسكريين الذين أخذوا يتباعدون عما تبقى من مظاهر الحكم الجمهورى ، حتى جعلوا من الجمهورية نظاماً استبدادياً يعتمد على الجيش فى تنفيذ مشيئة الإمبراطور والضغط على أهالى الإمبراطورية (٣٣) .

ولهذه العلة نجد دقلديانوس (٢٧٤ ـ ٣٠٥) قد استخدم

---

(٣٣) أوروبا القرون الوسطى جـ ١ ص ١٦ د . سعيد عاشور .

في الجيش نوعاً خاصاً من العساكر يرجع أصلهم إلى أكثر شعوب الإمبراطورية تخلفاً وبخاصة الجرمان والبرابرة المرتزقة الذين اعتمد عليهم في حماية الإمبراطورية .(٣٤)

ولما تنحى دقلديانوس عن الحكم لكبر سنه عام ٣٠٥ م اشتعلت الحرب الأهلية من أجل السيطرة على كرسى الإمبراطورية وقد استمرت هذه الحرب سبع عشرة سنة ، ولم يتم توحيد الإمبراطورية تحت عرش قسطنطين إلا عام ٣٢٣ م .(٣٥)

فالأسلوب العسكرى كان واحداً من عوامل قيام الدولة فى القديم ، كما كان عامل الوراثة موجوداً بصورة أوضح في الدولة الساسانية ، بل إن شراهة الحكم جعلت الولد يقتل والده كما قتل شيرنويه والده كسرى ابرويزبن هرمز .

وهذه الأساليب كلها ديكتاتورية تلغى إرادة الشعوب وحرية الأفراد وتمتص ثروات الأقاليم وعرق العاملين دون مقابل أو رغبة من الرعية ، أو إحساس ببديل فى المستقبل أو وجود قوة تجمع بين شتات الناس فى هذه الدول .

والدولة الإسلامية وحدها دون سواها إلى اليوم فى عرض التاريخ وطوله القديم والحديث هى الدولة التى قامت برغبة

---

(٣٤) أوروبا القرون الوسطى جـ ١ ص ٢٥ د . سعيد عاشـور .

(٣٥) نفس المرجع السابق ص ٢٦ .

كل واحد فيها وبفرحة كل قوم انتسبوا إليها فهذا هو حويطب ابن عبد العزى يقول لمكرز بن حفص ما رأيت قوماً قط أشد حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد ولبعضهم لبعض .[٣٦]

وقال عروة بن مسعود يوم الحديبية قد وفدت على كسرى وهرقل والنجاشي وانى والله ما رأيت ملكاً قط أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه .[٣٧]

والصحابى الشهيد خبيب بن عدى عندما احتالت قريش بقرصنتها على أسرته لقتله ثأراً لمن مات منهم يوم بدر ، عندما أرادوا قتله مصلوباً قالوا له :

أفتحب أن محمداً فى مكانك وأنت جالس في بيتك ؟ فقال : والله ما أحب أن يشاك محمد شوكة وإنى جالس في بيتى ، فجعلوا يقولون : يا خبيب أرجع .. وإلا قتلناك ؟ قال : والله لا أرجع . فأحضروا أبناء من قتل يوم بدر وكانوا أربعين غلاماً فطعنوه جميعاً كل برمح[٣٨] .

وهند بنت عتبة تقول : والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك ثم

---

(٣٦) الامتاع جـ ١ ص ٢٩٤ .
(٣٧) الامتاع جـ ١ ص ٢٨٧ .
(٣٨) الامتاع بتصرف جـ ١ ص ١٧٧ .

ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إلى أن يعزوا من أهل خبائك .

وعندما أشاع ضعاف الأعصاب عند تقسيم الغنائم التى غنمها المسلمون من هوازن أن المهاجرين أخذوا نصيب الأسد من الغنائم ، كانت فتنة أظهر الله من خلالها التفاف الأنصار وجدانيا بالنبي ﷺ . فلما خطب فيهم وطلب رأيهم قالوا : رضينا برسول الله قسما ، وحظا(٣٩) .

فهذه الالتفاتة القلبية تجاه النبي ﷺ فريدة فى واقع بناء الدولة ليس لها ند ولا شبيه ولا نظير فى بناء دولة أخرى .

الفكـرة والتنفيـذ :

ولقد كانت فكرة الدولة أساسية عند النبي ﷺ منذ العهد المكى ، لأنه أعلن عالمية الدين مراراً :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

(الأعـراف ١٥٨)

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢٨ ﴾

(سبـأ ٢٨)

---

(٣٩) السيرة لابن هشـام .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ١٠٧ ﴾

(الأنبياء ١٠٧)

«وفى مناقشة مع كبار قريش أول سنى البعثة قال النبي ﷺ : أرأيتم إن أعطيتكم هذه هل أنتم معطى كلمة ، إن أنتم تكلمتم بها ملكتم بها العرب ودانت لكم بها العجم »[٤٠] .

وإرسال المهاجرين الأول إلى الحبشة كان بدافع عالمية الدعوة موضوعياً ، وعالميتها دولة ، وثقة فى أن ملك الحبشة لديه من علم الكتاب ما يتساوى مع هذا الدافع ، وكانت النتيجة العملية التى احتفظ بها التاريخ أن النجاشى قال لوفد قريش : « لو أعطيتمونى دبرا من ذهب ما سلمتهم اليكما ، ثم أمر فردت عليهما هداياهما ورجعا بشرخيبة »[٤١] .

ومن لوازم الدولة تحديد سلطة التشريع وقد حرص النبي ﷺ على توضيح هذه السلطة فى نفوس المؤمنين كما بدأ غرس الجذور الأساسية لخطة التشريع التى تربو على ذمة سياسة الاستطراق العرضى حسب الحاجة والتوجيه والتربية .

---

(٤٠) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٠٢ .
(٤١) الامتاع جـ ١ ص ٢١ .

ففيما يتعلق بالسلطة التشريعية فقد حددها الله سبحانه وتعالى فى السور المكية :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

(يونس ٥٩)

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾

(النحل ١١٦)

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(النحل ٣٩)

﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(النحل ٤٤)

فالسلطة التشريعية هى الله والوحى إلى رسول الله ﷺ . كذلك شرعت أحكام فى العهد المكى كأساس لخطة ستتكامل حسب منهجية بناء الدولة .

ومن الأحكام التى شرعت :

الأخلاق ، وتحريم الفواحش ، وتحريم القتل ، وتحريم أكل مال اليتيم ، والتحضير لتحريم الربا ، والأمر بإخراج الزكاة والعدل ، والإحسان ، والوفاء « بالعهد » [٤٢] :

فتهيأت الجماعة الإسلامية بهذا لتكوين دولة عندما يحين وقت إعلانها .

وبناء الدولة شيء وفكرتها شيء آخر ، فالفكرة موجودة لكن الأهم من الفكرة هو إبرازها فى إطار حركى عملى والسياسة الإسلامية في تنفيذ البناء وضعت هذه الخطة في العهد المكى لتنمو الدولة على نمط القوانين الطبيعية ، لا تتقدم خطوة على غير موضعها ، ولا تسرع خطوة عن زمنها ، ولا تولد خطوة بدون آصرة بسابقتها وأن تكون مهيأة لما سيأتى من بعدها .

فالدور المكى كان مهمته وضع أسـس تربو رويداً رويداً حتى تقوم الدولة دون مضاعفات وكل أساس فيها يورق ويثمر .

وكان من أخريات العهد المكى معاهدات العقبة وهى معاهدات ذات صفات دولية :

الأولى : كانت لعرض فكرة الدعوة وأهدافها دون مراسيم كتابية .

---

(٤٢) راجع كتابنا : الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى ص ٥٩٤ وما بعدها (دار القلم) .

الثانية : كانت بيعة على المبادىء والأخلاق والتعاليم .
الثالثة : كانت بيعة عسكرية يوم تقوم الدولة وتنقل الدعوة إلى المدينة المنورة ، يلتزم الجميع بحمايتها والدفاع عنها .

مكونات الدولـــــة :

ولما انتقلت الدعوة إلى المدينة المنورة ولدت الدولة ميلاداً واقعياً حيث :

« أ » يوجد لها دستور وسلطة تشريعية ورئيس للدولة . فقد ضيع الإسلام على أبى بن سلول ملك يثرب بعد أن صنعوا له تاج الملك ، وحلت النبوة الكريمة فى الرياسة .

« ب » رعية لها آصرة واحدة هى الإيمان بالله ورسوله ﷺ وهى آصرة ذابت فيها جميع العلاقات ، واتحدت بها جميع القلوب ، وارتبطت بها جميع الأنشطة .

« جـ» لهذه الجماعة هدف واحد محدد هو : إعلاء كلمة الله على وجه الأرض كلها وقد عاهدوا على ذلك وباعوا أنفسهم من أجل تحقيق هذه الغاية ، ليس دون ذلك ما يرغب أو يعوق .

« د »لهذه الجماعة تشريع له خصائص تنسجم مع فطرة كل واحد يكون عضواً في رعية هذه الدولة .

« هـ» جيش لا يغيب منه واحد إذا نودى « يا خيل الله اركبى » .

« و » نظام اقتصادلى خاص : الغنى فيه كريم ، والقوى فيه عادل والضعيف فيه لا يحرم ، والعرض ، والمال والنفس كلها محترمة قيمها ولكل واحد الحق فى الدفاع عنها .

« ز » نظام اجتماعى؛

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات ١٠)

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات ١٣)

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة ٧١)

« والمسلم أخو المسلم ، والمسلمون إخوة »

« والمسلمون يد واحدة على من سواهم يتكافئون دماءهم يرد عليهم أقصاهم » .[٤٣] ... الخ .

« ح » وهى دولة ذات سيادة لا تمس ، ولا يمس واحد من رعيتها .

ــ وقد قامت الدولة الإسلامية بتأديب بنى قينقاع لاعتدائهم على عرض امرأة مسلمة ، كما جردت حملة عسكرية لمعاقبة قرية مؤتة لأنهم قتلوا واحداً من المسلمين هو الحارث بن عمير الأزدى .

ــ كذلك أدبت الدولة الإسلامية دولة الرومان فى غزوة تبوك .

---

(٤٣) الامتاع جـ ١ ص ٣٨٦ / ٣٨٧ .

ـ وأخضعت لها جميع الأطراف العربية والنصرانية من جنوب الجزيرة وشرقها وشمالها على حدود الدولة الفارسية والرومانية .

ـ وكان صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يجعل له نائباً على الدولة أثناء سفره[٤٤] .

الاعتراف بالدولة الإسلامية :

وهذه الدولة الإسلامية ليست دولة نكرة أو مجهولة أو تجاهلها ملوك عصرها بل هى دولة معترف بها من جميع الأطراف على اختلاف مللهم وجنسياتهم :

« أ » لقد اعترف بها اليهود المجاورون لها فى المدينة وهم : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكان اعترافهم فى وثيقة سياسية من الدرجة الأولى .

« ب » كذلك اعترفت قريش فى معاهدة الصلح التى وقعها سهيل بن عمرو فى أيام الحديبية .

« جـ» واعترف هرقل عظيم الروم وقال لأبى سفيان الذى أدار معه الحوار التاريخي المشهور في البخارى : « فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه [٤٥] ..

---

(٤٤) راجع الامتاع جـ ١ ص ٥٣/٥٤ ، ١٠٥/١١٣ ، ١٧٩/١٩٣ ، ٢١٦/٢٤١ ، ٣١٠/٤٤٩ .

(٤٥) البخارى باب بدء الوحى جـ ١ ص ٦ .

وساعتها شهد أبو سفيان بهذا الإعتراف وقال : فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام .(٤٦)

« د » واعترف النجاشي وقال : « لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه » .(٤٧)

« هـ» وتضمنت المواثيق والمعاهدات مع الأطراف الخاضعة للدولة هذا المعنى ومثاله ما كتب ليوحنا بن رؤبة وفيه : فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس .

ومثاله فيما كتب لثقيف : « أن هذا أمر النبي محمد رسول الله ﷺ فلا يتعداه أحد فيظلم أحداًأفيظلم نفسه فيما أمر به رسول الله ﷺ » .(٤٨)

ممارسة السيادة :

وقد مارست الدولة سيادتها فأرسلت عمالا على الأقاليم :

* فأرسل النبي ﷺ فروة بن مسيك بن الحارث على مراد ، وزبيد ومذحج .
* وأرسل إلى اليمن صحابيين جليلين كل فى منطقة وهما :

---

(٤٦) البخارى باب بدء الوحى جـ ١ ص ٦ .

(٤٧) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٢٥٨ .

(٤٨) الامتاع جـ ١ ص ٤٩٣ .

سيدنا على بن أبى طالب .. وسيدنا معاذ بن جبل ، ففى ابن ماجة والإمام أحمد عن على قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن ، فقلت يا رسول الله : تبعثنى إلى قوم أسن منى وأنا حدث لا أبصر القضاء ، فوضع يده على صدرى وقال : اللهم ثبت لسانه ، واهد قلبه ، يا على إذا جاءك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر ما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك الحق ، فما اختلف على على قضاء بعد .

وحديث معاذ مشهور : « بم تقضى إن عرض لك قضاء ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : اجتهد رأيى ولا آلو فضرب رسول الله ﷺ فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله » .

كذلك مارست الدولة سيادتها داخلياً فأقامت الحد على الزانى وقطعت يد السارق ، ودفعت الدية لمن قتل خطأ ووزعت الأنفال والفىء حسب جدول التوزيع المشروع .. الخ .

كذلك أدبت الدولة الإسلامية كل من اعتدى على كرامة أبنائها أو على دبلوماسى من سفراء رسول الله ﷺ . فقد سجل التاريخ عدة حوادث تدور حول ممارسة الدولة لسيادتها فى هذا المضمار منها .

أن النبى ﷺ بعث بسرية إلى حمص خلف وادى القرى

بقيادة زيد بن حارثة لأن الهنيد بن عارض في جمع من جذام قطعوا الطريق على سيدنا دحية الكلبى وهو أديب،من سفارته عند قيصر الروم فنهبوا ما كان معه من هدايا يحملها السفراء عادة عند عودتهم ودخل المدينة بسمل ثوب ، وسارت السرية وقوامها خمسمائة فارس ومعهم دحية الكلبى فدهموا مع الصبح محلة الهنيد فقتلوه وقتلوا ولديه معه واستاقوا ألف بعير وخمسة آلاف شاة .. وكان قوم من بنى الضبيب قد أسلموا وقرأوا القرآن فقدموا على النبي ﷺ بزعامة زيد بن رفاعة الجزامى وعرضوا أن يأخذ زيد بن حارثة ما كان القوم قد نهبوه وأن يرد إلى قومهم المال والولد والنساء فقبل النبى ﷺ منهم ذلك وأرسل على بن أبى طالب لينفذ أمر النبي ﷺ .

كما أرسل النبي ﷺ زيد بن حارثة إلى بني فزارة-ضاحية من ضواحى وادى القرى-لأنهم خرجوا على زيد وهو في طريقه إلى الشام بتجارة لأصحاب النبي ﷺ فأخذوا التجارة وضربوه هو ومن معه حتى ظنوا أنهم قتلو. فتحامل زيد حتى رجع إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ بالذى حدث فجهز رسول الله ﷺ سرية بقيادته إلى هذا النفر فأدبوهم وضربوهم وقاتلوهم حتى نصرهم الله عليهم .

وأرسل النبي ﷺ كرز بن جابر الفهرى إلى نفر من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ فأسلموا ثم استوبأوا المدينة فأمر

بهم رسول الله ﷺ إلى لقاحه فظلوا بها حتى سمنوا وكانوا قد استأذنوه ﷺ أن يشربوا من ألبانها فأذن لهم ثم غدروا فاستاقوا اللقاح فأدركهم يسار مولى رسول الله ﷺ ومعه ثلة من الصحابة فقاتلهم لكنهم غلبوه فأخذوه فقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات ، فانطلق الخبر إلى النبي ﷺ فقد حمله قوم من بنى عمرو إلى المدينة فبعث رسول الله ﷺ سرية كرز بن جابر الفهرى إلى ذلك النفر فأدركهم وأسرهم جميعاً حتى قدم بهم المدينة المنورة فنفذ فيهم رسول الله ﷺ حكم الحرابة فقطعت أيديهم وأرجلهم وصلبوا تنفيذاً للآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ ﴾

(المائدة ٣٣)

وهذه السيادة للدولة الإسلامية كانت محل توقير من الخصوم ، فعندما تحايلت جماعة من قريش على إفساد صلح الحديبية لرعونتهم ودسوا لحلفائهم من بكر ليغيروا على حلفاء النبي ﷺ فى خزاعة أدرك أبو سفيان ،-وكان يومها شيخ قريش-أنهم قد انتهكوا حرمة سيادة الدولة الإسلامية فقال :

هذا أمر لابد له من أن يصلح ، فوافقت قريش على أن يسافر أبو سفيان إلى المدينة ليطلب تجديد العهد والزيادة فى الهدنة .. ولكنه فشل وكان فتح مكة كمثال على ممارسة الدولة لسيادتها ، وكمثال على قيمة هذه السيادة فى نظر الخصوم .

وكان النبي ﷺ قد أرسل بكتاب إلى رعية السحيمى فلما وصله الكتاب رقع به دلوه ، وهذه إساءة دبلوماسية ضد سيادة الدولة فلم يسكت عنها رسول الله ﷺ فأرسل إليه سرية فهرب عرياناً إلى ابنته المتزوجة فى ديار بنى هلال وكانوا جميعاً مسلمين وقد أسلمت معم فغطته بثوب وحمله زوجها على بعير وذهب به إلى المدينة المنورة ليعتذر وليرد على النبي ﷺ أهله وماله ، فلما كان فى المسجد أخذ النبي ﷺ بعضده ورفعه ثم قال : أيها الناس هذا رعية السحيمى الذى كتبت إليه فأخذ كتابى فرقع بها دلوه .. فأسلم رعية(٤٩) .

ومجال ممارسة سيادة الدولة الإسلامية واسع فسيح سجله التاريخ فى عديد من الأحداث الخارجية والداخلية بصورة تؤكد أن قيام الدولة الإسلامية وتوقع الدول والشعوب الأخرى لقيمتها كان حدثاً يتيماً في التاريخ السياسي القديم ، الذى لم يجد له مثيلاً فى مضمون السيادة وفى مستواها والاعتراف بها والتقدير لمكانتها .. !!

---

(٤٩) الامتاع جـ١ ص ٤٤١ / ٤٤٢ .

الواقع الفعلى والتصور المستقبلى :

فالدولة الإسلامية إذن واقع حضارى:

إنها واقع حضارى بالفكرة والنصوص المعصومة ، والعمل الدعوب الرتيب المنظم .

وواقع حضارى بالمعاهدات والمواثيق ، والوفود والسفراء والبعوث .

وواقع حضارى بمدنها وعلمائها ، وجيوشها ونظامها الاجتماعى والاقتصادي .

وواقع حضارى بممارسة سيادتها على أقاليمها وتنفيذ قوانينها .

وواقع حضارى باعتراف كل الخصوم بمبادئها وتعاليمها وسيادتها على رعيتها وأملاكها .

بل إن اتساعها كان ملاحظاً فى التصور النبوى الذى أخبر به المصطفى ﷺ فقد كانت السواعد فى يوم الخندق تحفره ، وتضيق حلقات الرجاء في نصر ما إلا إذا شاءه الله ، وبلغت القلوب الحناجر يومها وفى هذه اللحظات العسيرة يأخذ النبي ﷺ المعول من سلمان الفارسى ويضرب الكدية فيخرج منها برقة تنير اليمن كالمصباح فى جوف ليل مظلم فكبر النبي ﷺ وقال :

« أعطيت مفاتيح اليمن ، إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى الساعة »

ثم ضرب الثانية : فخرج نور من قبل الروم فكبر رسول الله ﷺ وقال :« أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنى لأبصر قصورها .»

ثم ضرب الثالثة : وبرق برقة فكبر وقال : أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنى لأبصر قصور الحيرة ومدائن كسرى (٥٠) .

ولم تكن مرة وانتهت بل كررها النبي ﷺ مع عدى بن حاتم عندما وفد على رسول الله ﷺ ، فقد روى أصحاب السير أن النبي ﷺ قال لعدى :

لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم أتعرف الحيرة ؟ قال :«لم أرها وقد سمعت بها»، قال :«فو الله ليتمن هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة وتطوف بالبيت من غير جوار أحد .

ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم»

قال عدى : قد رأيت المرأة تخرج من القادسية في بعيرها حتى تحج البيت ، وأيم الله ليكونن الثانية (٥١) .

فالنصوص تقدم لعقل المنصف وثائق على وضوح مدلول فكرة الدولة الإسلامية فى التصور بل ومدى اتساعها حتى بعد

---

(٥٠) الحلبية جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٥١) الحلبية جـ ٢ ص ٢٢٦ .

أن يلحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى . وفى السنة الإسلامية ما هو أوسع من ذلك فقد روى البخارى عن أم حرام بنت ملحان قال :

ـ «أول جيش من أمتى يركبون البحر قد أوجبوا ، وأول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم .

ـ لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»

(رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح)

ـ «لعلكم ستفتحون بعدى مدائن ، فإذا كان ذلك فردوا السلام ، واهدوا الأعمى وأعينوا المظلوم».

(رواه الطبرانى عن وحشى بإسناد حسن)

ـ شهادة التاريخ وبساطة النظم :

ولقد شهد التاريخ بصحة كل هذه التصورات ففتحت القادسية والمدائن ، كما فتحت القسطنطينية وقبرى .. الخ .

والسؤال الآن : هل يمكن لعاقل أن يدعى أن النبي ﷺ لم يكن لديه تصور عن فكرة الدولة فضلاً عن رياستها ؟

صحيح أن الدولة الإسلامية سهلة النظام لأنها تفضل أن يصل الحق إلى أهله فى صورة مبسطة وميسرة ، فقد بعثت أمة الإسلام ميسرة ومبشرة لا منفرة فالغايات عندها هى الأسمى والوسائل إليها بسيطة .. ومفهوم الدولة فى نظر الإسلام هو

قيم الحكم ونظام الإدارة المريحة وليس مفهوم الدولة هو البذخ والإسراف والكبرياء والعنجهية وكثرة التعقيدات .

ومعروف أن كل نظام للحكم له خاصية وطبيعة ، وطبيعة النظام الإسلامى أنه ميسر وسهل وبسيط ، لا عقد فيه ولا تكبر ، فهل يقاس النظام الإسلامى برحمته وإحسانه وشفقته ومودته بعجرفة نظام أرضى فاشل ؟

ـــ الدولة الإسلامية والمخططات المعادية :

الدولة الإسلامية أقامت نفسها فى ظل ثلاثة وعشرين عاماً ، وأجهزت على قوى اليهود والنصرانية وفارس والروم ، لعسكريتها الكادة ، وسماحة نظامها الإدارى السهل البسيط وربانيتها فى السلوك والعلاقات .

فالذين يروّجون لفكرة أن لا دولة فى الإسلام هل هم قادرون على تنفيذ عملية واحدة فقط من العمليات العليا التى حققها سيدنا رسول الله ﷺ

وهى مواجهة دويلة إسرائيل وهى تركل الناس فى بيروت بأحذية جلاديها على مشهد من العالم كله فى أفلام التليفزيون والتى تنشرها وكالات الأنباء العالمية ؟ والذين يريدون أن يخدموا المخططات التى تهدف إلى تجويف الإسلام من مضمونه السياسي وتحويله إلى كهنوت كنسى فارغ من مقدساته ومقوماته هل هم فى تربيتهم وأسرهم على مستوى التصور لفكرة الدولة ؟ كما اختص محمد ﷺ بيئة خاصة

رفيعة جمع الله فيها لرياسة قريش ، رياسة سدانة الكعبة وشرف الرفادة والسقاية والقضاء .

اى الناس أولى بالتصور السليم لمعنى الدولة :

ـــ رجل أرومته من الذروة فى الشرف والرياسة طوال الدهر وينتهى نسبه إلى الأنبياء ؟

ـــ أم رجل ينحدر من جرثومة واطئة أقصى ما يمكن أن نتصوره أن يصاهر خفيراً فى قرية أو يعمل فى شغل ما ليرتزق ؟

هل تتساوى الملكات النفسية بين رجل أمه وأبوه من ذروة النسب بشهادة الله والتاريخ وإجماع الأمة ، ورجل أمه من السوقة لا تعرف لها قراراً ووالده يتكفف الناس هائماً على وجهه ترده اللقمة واللقمتان ؟؟

ولقد حذرنا النبي ﷺ من خضراء الدمن ، فقال :« إن العرق دساس وخياركم فى الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا ؟»

ـــ واخـــيراً :

فإن سيدنا محمدا ﷺ رئيس أول دولة قامت بحب صادق من كل واحد من رعيتها فى قيامها . وجاهد كل فرد فيها في سبيل بنائها بالمال والنفس لغاية عليا هى : أن تكون كلمة الله هى العليا وحدها . وهو ﷺ بما خلقه الله من أصل له

السؤدد والشرف والطهارة والرياسة أولى من الملوك والرؤساء جميعاً بأن يبنى الدولة التى تصل الرحم وتكسب المعدوم . وتعين على نوائب الدهر ، ولا يضيع فيها يتيم ولا معدوم ولا يتكبر فيها غنى أو قوى أو عالم .

ولا يبطش فيها رئيس ولا وزير ، ولا يذل فيها ضعيف غير مأثوم .. ؟؟

بل الناس فيها سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ولقد شهد التاريخ وقائع هذه الدولة واستقر فى تاريخ الحضارة الإنسانية ميزان هذه الدولة وقيمتها وأهميتها فى الأمن والرخاء وكرامة الإنسان .

فليوفر السياسيون على أنفسهم محاربة دولة الإسلام فقد وعد الله بحمايتها وحفظها وتوعد كل من يشاقق الرسول بالخسران والحسرة :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأنفال ٣٦)

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾

(الأنفال ٣٨)

ــ فهل سيعقلون ؟

ــ لا علينا إن لم يعقلوها : فإن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

جـ - تحويل الخصوم إلى اتباع مجاهدين :

أ - سهيل بن عمـرو : -

يعرف تاريخ الدعوة موقف سهيل بن عمرو فهو ذلكم الخطيب المفوه المصقع الذى كان يؤذى المسلمين بلسانه إلى درجة أنه لما وقع أسيراً فى غزوة بدر اقترح سيدنا عمر بن الخطاب على مولانا رسول الله ﷺ أن يقطع قواطعه حتى يدلع لسانه فلا يقوم خطيباً ضد الإسلام .

يقول المقريزي :

ولما أسر سهيل بن عمرو ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا رسول الله انزع ثنيته يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبدا » ..

ومعنى « يدلع لسانه » يسقط من بين أسنانه (٥٢) .

فهل كان من صالح الدعوة قبول هذا الاقتراح .. ؟ ؟

فننظر .

ويعرف التاريخ الإسلامى كذلك أن سهيل بن عمرو كان

---

(٥٢) امتاع الاسماع جـ ١ ص ٩٦ .

من المتشددين في اختيار الألفاظ التى كانت تكتب بها معاهدة صلح الحديبية وأنه ضرب ولده : أبا جندل عندما جاء يرسف فى الأغلال وتوقف عن المضى فى إبرام المعاهدة إن لم يرجع المسلمون ولده المسلم إلى دياجير دار سهيل ، وكان مشهداً تتقطع له الأفئدة وبكت له عيون المسلمين فلقد كان امتحاناً قاسيا على نفوسهم وقلوبهم .

فهل كان من صالح الدعوة ألا يتم صلح الحديبية ؟

ـــ وسهيل بن عمرو هذا الذى كان يتشدد فى انتخاب ألفاظ المعاهدةكما ترون هو الذى ساعد فى إلغاء هذه المعاهدة عندما ساعد قبيلة بكر حليفة قريش لتعتدى على العزل من النساء والأطفال والرجال من قبيلة خزاعة التى دخلت فى حلف مع سيدنا رسول الله ﷺ .. وزجت قريش بسفيرها أبى سفيان ليبقى مفعول المعاهدة ساريا بعد أن شعروا بالجريمة التى ارتكبوها .. ولكن الله كان قد هيأ للإسلام مستوى جديراً من النصر فكان فتح مكة ودخل سهيل بن عمرو فى دين الله ، فاكتسبت الدعوة بذلك انتصاراً آخر رائعاً وهو أن ينقلب أحد الخصوم الألداء إلى صديق وأخ مجاهد ، وتدور الأيام ويقف سهيل بن عمرو خطيباً لكنه من أجل حماية الإسلام بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ، وفاحت فى مكة رائحة الردة وقف سهيل بن عمرو خطيباً يقول فيهم نفس المقالة التى

سمعها المسلمون فى المدينة المنورة من رئيس الدولة سيدنا أبى بكر رضى الله عنه .

يقول المقريزي : نقلا لموقف سيدنا رسول الله ﷺ تجاه اقتراح سيدنا عمر بن الخطاب الذى رويناه آنفا : فقال ﷺ لعله يقوم مقاماً لا تكرهه فقام سهيل بن عمرو حين جاءه نبأ وفاة النبي ﷺ بخطبة أبى بكر رضى الله عنه بمكة كأنه كان يسمعها ، فقال عمر رضى الله عنه حين بلغه كلام سهيل : أشهد أنك رسول الله يريد : قول النبي ﷺ :«لعله يقوم مَقاماً لا تكرهه»(٥٣) .

فأيهما أفضل للدعوة أكان يدلع لسان عمرو بن سهيل يوم بدر ؟

أم كنا نتركه كامل الأسنان ليكون مفوها يحتاج إليه ليربأ الصدع ويلم الشعث ويوحد الصف ويدفع نحر الفتنة ؟؟

ـ وسهيل بن عمرو الذى سعى فى إلغاء صلح الحديبية وشارك فى حرب ضد الإسلام فانظر إليه يوم حجة الوداع كيف كان يسوق النوق لينحرها سيدنا رسول الله ﷺ ويلتقط الشعر الذى كان يحلقه رسول الله ﷺ ثم يجعله على وجهه وعينيه وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه يشهد هذا المنظر الرائع فى الولاء والانتماء ، ويطوف بذاكرته يوم صلح الحديبية

---

(٥٣) امتاع الاسماع جـ ١ ص ٩٧ .

وسهيل يتمسك بألفاظ جافة كان يحرص عليها فيتعجب أبو بكر ويروى للتاريخ هذا الموقف الرائع .

يقول المقريزي حكاية عن سيدنا أبى بكر رضى الله عنه :

« لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو فى حجة الوداع قائماً عند النحر يقرب إلى رسول الله ﷺ بدنة ، ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاق فحلق رأسه فانظر إلى سهيل يلتقط من شعره وأراه يضعه على عينيه ، وأذكر إباءه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، وإباءه أن يكتب : أن محمداً رسول الله فحمدت الله الذى هداه إلى الإسلام » (٥٤) .

والذى حمده سيدنا أبو بكر رضى الله عنه لسهيل بن عمرو رضى الله عنهما هو أحد المقاصد العليا للدعوة الإسلامية فى أن تجعل الخصوم الذين عادوها أتباعاً أحبوها ويؤثرون على أنفسهم من أجلها .

٢ ـ صفوان بن أمية :

ويعرف التاريخ كذلك ما فعله أمية بن خلف فى نبي الإسلام ﷺ وفى اتباعه رضوان الله عليهم ، ومعروف كذلك ما فعله صفوان .

---

(٥٤) امتاع الاسماع للمقريزى جـ ١ ص ٢٩٦ .

لقد كان يحرص على قتل النبي ﷺ يوم أحد .

يقول المقريزي :

.. وجعل رسول الله ﷺ وقد انكشف الناس إلى الجبل وهم لا يلوون عليه ، يقول : إلى يا فلان ، إلى يا فلان ، أنا رسول الله ، فما عرج واحد عليه هذا والنبل يأتيه ﷺ من كل ناحية وهو فى وسطها والله يصرفها عنه وعبد الله بن شهاب الزهدرى يقول : دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا ورسول الله ﷺ إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه عبد الله بن شهاب فلقى صفوان ابن أمية بن خلف فقال له : ترحت ألم يمكنك أن تضرب محمداً فتقطع هذه الشأفة فقد أمكنك الله منه ؟

قال : وهل رأيته ؟ قال : نعم ، إنه إلى جنبك ، قال : والله ما رأيته ، أحلف أنه منا ممنوع خرجنا أربعة تعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك .(٥٥) .

بل إن صفوان بن أمية ليحاول بعد غزوة بدر أن يقتل سيدنا رسول الله ﷺ فيتفق مع عمير بن وهب بن خلف بن وهب الجمحى أن يقتل رسول الله ﷺ على أن يتحمل صفوان ديته ويقوم بشأن عياله ، وجهز صفوان لعمير بعيراً وجهزه تجهيزاً حتى قدم عمير المدينة المنورة ودخل المسجد متقلداً سيفه يريد رسول الله ﷺ فأدخله عمر بن الخطاب رضى الله

---

(٥٥) امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٣٠ .

عنه على النبي ﷺ فقال له ﷺ : ما أقدمك يا عمير ؟ قال : قدمت فى أسير عندكم ، قال : فما بال السيف ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت من شيء ؟ إنما دنسته حين نزلت وهو فى رقبتى ، فقال النبي ﷺ : أصدق ، ما أقدمك ؟ قال : ما قدمت إلا فى أسيرى .. !! قال ﷺ : فما شرطت لصفوان بن أمية فى الحجر ؟ ففزع عمير فقال : ماذا شرطت له ؟؟ قال : تحملت له بقتلى على أن يقضى دينك ويعول عيالك والله حائل بينك وبين ذلك ... قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، وأنك صادق ، وعاد عمير إلى مكة يدعو الناس إلى الإسلام (٥٦) .

ومع هذا ظل صفوان بن أمية سادراً فى كفره وعناده حتى كان فتح مكة فامتشق حسامه ودرعه وسيفه ورمحه وشن غارة على سيدنا خالد بن الوليد كان صفوان هو الخاسر فهرب وقد أهدر دمه فقد استحل حرمة البيت الحرام ، ولم يحترم الحق الذى تمتلىء به جوانحه ومع ذلك فقد عفا عنه رسول الله ﷺ وأعطاه الأمان بناء على طلب أمان من الصحابى الجليل عمير ابن وهب بن خلف الذي كان قد استأجره بعد غزوة بدر ليقتل رسول الله ﷺ ، ورضى رسول الله ﷺ وأعطاه فرصة للتفكير وخرج صفوان بن أمية مشركاً مع رسول الله ﷺ فى حرب حنين وكان معه عثمان بن أبى طلحة وقد تعاهدا على قتل رسول الله ﷺ

---

(٥٦) راجع امتاع الأسماع جـ ١ ص ١٠٠ .

إذا رأيا دبرة عليه ولكنهما يمنعان ويدخلان فى الإسلام عن طواعية وإرادة مختارة حرة (٥٧) .

ــ ومثل ذلك عكرمة بن أبى جهل .

ــ وأم كلثوم وأخوها الوليد بن عقبة بن معيط .

لقد نجحت الدعوة في قلب قلوب هؤلاء من الكفر إلى الإيمان وكأنما الله ادخرهم للدفاع عن الإسلام يوم ردة بعض قبائل العرب فإنهم قد حملوا في نفوسهم حماساً رائعاً ومكثفاً لحماية الإسلام الذى دخلوا فيه حديثاً عن اقتناع ورضى من كل من يريد أن يعبث به فيقدر ما فى نفوسهم من قوة حماس وحب للإسلام بقدر اندفاعهم الشديد للجهاد في سبيل الدفاع عن بيضة الدين ولوائه .

ونصر آخر يوم القيامة ، فسوف يدخلون الجنة مع رسول الله ﷺ والصحابة فيكونون حجة لرسول الله ﷺ على آبائهم .

سوف يطلب منهم آباءهم : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ..

فيردون عليهم : ألم يأتكم محمد ﷺ فلم تصدقوا ... ؟؟

ياله من نصر رائع في الدنيا :

باتباعهم الدين الذى حاربوه

وبجعلهم حجة على آبائهم يوم القيامة

---

(٥٧) راجع امتاع الاسماع جـ ١ ص ٤١٠/٤١١ .

وشهادتهم أن محمداً رسول الله ﷺ
قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة .
وجاهد بحق ورحمة وصدق فى سبيل الله ؟؟
فهل بعد هذا النصر من نصر؟؟

المنهجيــــة

بعث النبي ﷺ والجزيرة العربية والجيران من حولها يعيشون في صخب مفزع فيما يتعلق بالاعتقاد ، والسلوك وفى أقل من ربع قرن تحولت وجه الحياة :

أ ـ فصارت الأمة العربية مسلمة .

ب ـ وسمعت الدول المجاورة لصوت الرسائل النبوية يدعوها إلى الإسلام .

فهل انتقلت هذه الظروف التى كان يعيشها المجتمع بأساليب خارقة للعادة بمعنى أن معجزات من السماء لوت عناقيد الرجال ، وبدلت محاورات القلوب وجعلتها تدخل في دين الله ؟؟

أو أن الانتقال أخذ أسلوباً منهجياً ؟؟

لا شك أن كل حركة فى الدعوة لم تركن بالدرجة الأولى إلى العمل الإعجازى بل إن القرآن الكريم ليرفض استجابة القوم إلى مثل هذا الأسلوب .

لقد قاوموا : وقالوا لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه .. ورفض الله جل جلاله هذا الاقتراح وقال لهم :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (غافر ٧٨)

وقال الله لهم

﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الإسراء ٥٩)

وقال الله لهم :

﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(الأنعام ١٠٩)

وإذن فأسلوب القسر والإعجاز كمنهج فى توصيل الدعوة إلى الناس مرفوض من الله جل فى علاه فإن الله يحب أن يأتى الناس إليه طواعية ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾

(يونس ٩٩)

لقد اتخذت الدعوة الإسلامية فى انتقال الناس من الظلمات إلى النور عدة مناهج تحترم فيها إمكانات الناس وظروفهم وتحترم طبائع الأشياء ، ونواميس الكون ، وتعمل على أن تظهر طبيعتها وطبيعة العمل فيها : ـ

أ ـ فحدد منهج التبليغ . ب ـ وحدد قنوات الاتصال .

جـ ـ ووضع للعمل مع الجماعة منهجاً خالصاً .

أ ـ منهج التبليغ

ما الأسلوب الذى استخدمه رسول الله ﷺ فى تبليغ دعوة الله وهو ينقل الدعوة بمنهج عملها مع الجماعة ومنهج التفكير الذى رسمه القرآن الكريم سالفاً ... ؟ مناهج الدعوة فكرياً واجتماعياً وهى الطريقة التى سنها القرآن لتبليغ دعوة الله فما الأسلوب وما نوع الكلمة التى نقل بها الرسول ﷺ مبادىء الإسلام إلى الناس وهو يتخذ مناهج الدعوة طريقاً ؟

إن القرآن الكريم يجيب على هذا التساؤل .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(النحل ١٢٥)

الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن هى الأسلوب وهى نوع الكلمة التى بلغ بها رسول الله ﷺ دعوة الله إلى الناس فى جميع مراحلها .

وبمنتهى البساطة يدرك الداعية مقدار التوازن بين المناهج السالفة وطريقة استخدامها فى عملية التبليغ بهذا الأسلوب .

ففى المناهج وفى أسلوب أو نوع الكلمة المستخدمة في التبليغ عنصر أساسى جامع وهو الإسلام المطلق والصبر

الطويل حتى يمكن للدعوة أن تبدو على حقيقتها في ثوبها الطبيعي وأهدافهاالسامية دون تزيين أو انحراف عن جادتها

ـ والحكمة : التى توصف بها الكلمة التى تستخدم للتعبير عن مبادىء الدعوة هى فى حيز قوله تعالى :

﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾

(الفرقان : ٥٢)

ففى القرآن الكريم كل شفاء وغناء يقول الله تعالى

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

(الإسـراء : ٨٢)

يقول شيخنا العارف بالله الدكتور / عبد الحليم محمود رحمه الله :

... ولكن القرآن لم يكن ليلقى القول على علاته وإنما يأتى بالقضية مبرهنا عليها بالدليل تلو الدليل فيرضى العقل ويطمئن النفس ويقود الضمير إلى الاذعان [58] .

ويقول الإمام الغزالى فى كتابه : « إلجام العوام ... » فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان .

بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى الرضيع

---

(٥٨) التفكير الفلسفى ص ٥٨ .

والرجل القوى وسائر الأدلة كالأطعمة ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها الأخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا (٥٩) ..

ففى القرآن الكريم كل كفاية لتوصيل دعوة الله وتحقيق وحدات المنهج، يقول شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود :

إن الرسول ﷺ والصحابة بأجمعهم ماسلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا في تحرير الأدلة خوضا يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض وإذا عارضوا اليهود والنصارى عارضوهم بكلام الله سبحانه وتعالى فى أوثق نص من نصوصه المنزلة وهو القرآن (٦٠) .

إن الحكمة هنا هى كما استخدمها رسول الله ﷺ مع الحصين . لقد كان الحصين رجلاً تعظمه قريش وتجله فأرسلوه إلى رسول الله ﷺ ليكلمه حتى ينتهى عن دعوته فلما جاء إلى النبى ﷺ قال «أوسعوا للشيخ ...»

فقال الحصين : «ما هذا الذى بلغنا عنك إنك تشتم آلهتنا وتذكرها ؟»

فقال رسول الله ﷺ : «يا حصين كم تعبد من إله ؟» قال : «سبعة فى الأرض وواحداً فى السماء». فقال : «فإذا أصابك الضر لمن تدعو ؟» قال «الذى فى السماء» قال : «فإذا هلك المال من

---

(٥٩) الجام العوام ص ٢٦٦ من مجموعة القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى .

(٦٠) التفكير الفلسفى ص ١١٩ .

تدعو ؟ قال : الذى فى السماء ، قال:« فيستجب لك وحده وتشرك معه ؟ أسلم تسلم ..» فأسلم فقال رسول الله ﷺ لأصحابه« شيعوه إلى منزله [٦١]».

والحكمة هى الأسلوب الذي واجه به النبي ﷺ عتبة بن ربيعة لما عرض على رسول الله ﷺ أشياء حتى إذا فرغ منها ما ناقشها رسول الله ﷺ ولا جادله فيها ولكن قال له: « أفرغت يا أبا الوليد ؟»قال«نعم» قال: « اسمع منى فتلا رسول الله ﷺ ﴿ حمٓ.تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ » فصلت ١ ، ٢ ومضى رسول الله ﷺ يقرؤها فلما سمع بها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلفه أو خلف ظهره معتمداً عليها ليسمع منه[٦٢] حتى انتهى رسول الله ﷺ وقام عتبة وقد تغيرت معالم وجدانه وتقاسيم وجهه وقال فيه قومه لما رأوه من بعيد « نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به »[٦٣].

---

(٦١) الحلبية جـ ١ ص ٣١٨ .

(٦٢) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٤ .

(٦٣) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٥ ، السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤ ، ذكر فى الخازن جـ ٤ ص ١٢٤ ، والطبرى جـ ١٤ ص ١٩٤ ، وتفسير المراغى جـ ١٤ ص ١٦١ وابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠ ، الألوسى جـ ١٤ ص ٢٥٤ ، وفى غيرها من كتب التفسير معانى للحكمة ولكنى اطلقنا من كل عقال لتجميع كل وصف يراد منها حسبما هى طبيعة كلمات القرآن الكريم .

نعم لقد جاءهم بوجه رق للإسلام ولقد قال لهم صراحة : « والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به(٦٤) .

والحكمة كأسلوب ووصف للكلمة التى تنقل الدعوة هى أسلوب يؤدى به الداعية رسالته دون فضل يتحدث به أو شهوة فى شهرة يعرف بها وليس له منة على الدعوة بل الله يمن عليه أن هداه إلى الإيمان .

إن النظر فى أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذى ينبغى أن يستخدمه الداعية كل مرة فى تبليغ رسالته بحيث لا يثقل ولا يشق بالتكاليف قبل أن تستعد النفوس للتحمل الشامل للدعوة ، وطريقة المخاطبة والتنويع فى الأسلوب حسب مقتضيات الأحوال هو الحكمة التى تريدها الدعوة فى العصر الحديث كبديل للحماس المتزايد والاندفاع الملتهب الذى

---

(٦٤) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٥٦ ، السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤ ، ذكر فى الخازن جـ ٤ ص ١٢٤ ، والطبرى جـ ١٤ ص ١٩٤ ، وتفسير المراغى جـ ١٤ ص ١٦١ وابن كثير جـ ٢ ص ٥٩٠ ، الالوسى جـ ١٤ ص ٢٥٤ ، وفى غيرها من كتب التفسير معانى للحكمة ولكنى اطلقها من كل عقال لتجميع كل وصف يرد منها حسبما هى طبيعة كلمات القرآن الكريم .

يتجاوز حدود الحكمة فيضر الدعوة والداعية على السواء[65] .

وهي في أدق موازينها العيش في الجو القرآني والهدى النبوي الكريم .

ـ والموعظة الحسنة : طبيعة الكلمة العاطفية التي تدخل إلى القلوب برفق وأناة وهدوء فتلطف من حرارة الصدر وتلمس المشاعر بلطف وتنعش الوجدان في تؤدة وتدفع إلى استشعار روحانية الدعوة فهي ترطيب للفكر الثائر وحل لعقد التقاليد الصعبة وإنقاذ من حيرة لا شعورية موهومة وطمأنينة تسكن ثورة الجموح ، وكثيراً ما هديت القلوب الشاردة بالموعظة الحسنة وأنها مع الطبائع الخيرة أفضل من الزجر والتأنيب والتوبيخ والتجريح .

وقد حرص القرآن الكريم كثيراً على الموعظة الحسنة كأسلوب ووصف للكلمة التي يتلفظ بها الداعية .

ومع قسوة العذاب والتنكيل التي شنها أعداء الدعوة في عهدها المكي كان القرآن دائماً يحرص على الوصية بالموعظة الحسنة يقول الله تعالى :

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ ﴾ (فصلت ٣٤)

---

(٦٥) راجع في ظلال القرآن جـ ١٤ ص ١١٠ .

فليس للداعية أن يرد بالسيئة إذ لا تستوى آثار السيئات وآثار الحسنات كما لا تستوى كذلك قيمة كل منهما فإن الصبر والتسامح والاستعلاء على رغائب النفوس ف مواجهة الشر بمثله قد يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ومن الجماح إلى اللين وكم تصدق هذه القاعدة فينقلب الهياج إلى وداعة والغضب إلى سكينة والتبجح إلى حياء ؟

إن الكلمة الطيبة تبقى قاعدة وأسلوباً في تبليغ الدعوة ترد بنبرتها الهادئة وبسماتها الحانية غاضباً متبجحاً مفلوت الزمام .

فإن لم ترده هذه الكلمة الطيبة فقد بقى للدعوة أنها كانت ولا تزال تحسب له الخير إنه هو الذى لا يريد لنفسه ذلك .

وبالموعظة الحسنة يظهر للدعاة أن هدفهم هو حب الخير للناس بهذا الدين وحماية مستقبلهم ف الدنيا والآخرة من الضنك والضياع ثم يظهر لمعارضى الدعوة أو معارضى الخير لأنفسهم سؤال .

لم لا يرد الدعاة السيئة بمثلها وهم قادرون عليها ؟

إن الذى يمنع الدعاة هو الأسلوب المفروض عليهم ، ادفع بالتى هى أحسن السيئة وتلك الوظيفة تحتاج إلى سماحة تستعلى على دفعات الغيظ وشحنات الغضب وتحتاج إلى قوة توازن بين الدفع بالتى هى أحسن وبين السماحة التى تستعلى على الآلام والغضب والغيظ .

وهى معادلة دقيقة وصعبة جداً ولكنها لازمة في تبليغ الدعوة حتى يستمر الداعية نشيطا تدفعه الحسنى في المعاملة إلى مزيد من العمل دون حساب لسيئات المناهضين للدعوة .

وفى الإنسان - وخاصة الإنسان العربى - طابع الحياء والشهامة التى تحب أن تعود إلى الحق وتعترف به كفضيلة خلقية لها ، ولهذا أشاد القرآن الكريم بالموعظة الحسنة كأسلوب ووصف لنوع الكلمة التى يستخدمها الداعية في تبليغ الدعوة لأنها تتلاءم مع طابع الحياء أو الشهامة التى يتحلى بها الإنسان غالبا،ولقد كان من نفحاتها إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب(٦٦) ، فقد أرجعتهما إلى صوابهما حسنات المسلمين فانقلبت ضراوتهما على الإسلام تحمسا وانتصارا له وفتح الله بهما للمسلمين فتحا كريما .

وما أحوج الدعوة في هذا العصر إلى الموعظة الحسنة وخاصة في المجتمعات البدائية التى لا تحتاج في نشر الإسلام إلى أكثر من السلوك الطيب والكلمة الطيبة والمعاملة بالمعروف .

---

(٦٦) راجع الحلبية جـ١ ص ٣٣٢ / ٣٣٣ / ٣٦٧ .

وجادلهم بالتى هى أحسن :

لا تحامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح لفكره مادام يريد أن يصل إلى الحق فالمجادلة بالتى هى أحسن صفة الكلمة التى ينبغى أن يستخدمها الداعية مع هذا اللون من الناس ليس هدف الداعية الغلبة ولا المخاصمة ولا الشهرة بالتفلسف ، ولكن هدفه توصيل دعوة الله فإذا احتاج الداعية مع صنف من الناس إلى جدال فليكن الجدال بالتى هى أحسن بالاقناع الموصل إلى الحق فى قالب الكلمة الطيبة بعيداً عن الحماس الشارد عن المحجة البيضاء وكثيراً مايختلط على النفس البشرية قيمة رأيها وقيمتها عند الناس حتى ليصبح التنازل عن الرأى تنازلا عن الهيبة والكيان .

فحدد القرآن الكريم أسلوب التبليغ مع هذا الصنف « الجدل بالحسنى » فإنه هو الذى يطامن من هذا الكبرياء الحساس ويشعر المجادل بأن ذاته مصونة وقيمته محفوظة وكرامته موقرة وأن ما يقصده الداعية من مجادلته هذه كشف الحقيقة ذاتها والاهتداء إليها حسبة لله لا ابتغاء نصر لرأيه وهزيمة لرأى الآخر [٦٧] .

---

(٦٧) راجع فى ظلال القرآن جـ ١٤ ص ١١٠ .

وبالتى هى أحسن قيد مهم غفل عنه المسلمون فوقعوا في شباك مكيدة كانت مبيتة للأمة الإسلامية تواطأ عليها أعداؤها من خارجها ومن داخلها حتى أضناها الخلاف وضيعها التشدق والجدال[68] .

ثم هو قيد مهم كذلك لأخلاق الداعية الذى أريد له أن يخرج عن إطار المنهج فيستفز حتى ينفد صبره فيفسد منهجه ولكى يطامن الداعية من حساسيته واندفاعه كان هذا القيد : بالتى هى أحسن ثم كان ختام الآية الكريمة :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل ١٢٥)

فلا ضرورة إذن للجاجة في الجدل « فإنما عليك البلاغ » والأمر بعد ذلك لله رب العالمين .

هذا هو أسلوب الدعوة ودستورها في التبليغ مادام الأمر في دائرة الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، فإذا ما تغير الموقف وصار الأمر من جهة الخصوم كلاما بالسلاح كان للدعوة أسلوب ومنهج يتفق مع موقف المعاندين بعد أن أفصحت الدعوة لهم عن سموها وأخلاقها وحنوها عليهم طوال سنين .

وقد ذكر الإمام الغزالى رضى الله عنه في كتابه (القسطاس

---

(٦٨) التفكير فريضة إسلامية ص ٤٠ / ٤٣ .

المستقيم) : أن المدعو إلى الله تعالى بالحكمة قوم ، وبالموعظة قوم وبالمجادلة قوم وعلل لذلك بقوله : « فإن الحكمة إن غذى بها أهل الموعظة أضرت بهم كما تضر بالطفل الرضيع التغذية بلحم الطير وأن المجادلة إن استعملت مع أهل الحكمة اشمأزوا منها كما يشمئز طبع الرجل القوى من الارتضاع بلبن الآدمى .

وأن من استعمل الجدال مع أهل الجدال لا بالطريق الأحسن كما تعلم من القرآن كان كمن غذى البدوى بخبز البر وهو لم يألف إلا التمر ، أو البلدى بالتمر ، وهى لم يألف إلا البر[٦٩] .

وهو تصنيف مقبول من جانب إذا نظرنا إلى الأساليب الثلاثة مجزأة : الحكمة والموعظة الحسنة ، والجدال بالتى هى أحسن ، ولكن إذا نظرنا إلى أحوال الشخص الواحد وأنه قد تعتريه حالات ثلاث :

- **حالة الفطنة .**
- **وحالة الوجدان والعاطفة .**
- **وحالة الكبرياء والذاتية .**

أدركنا أن هذه الأساليب الثلاثة تصلح لرجل واحد قد

---

(٦٩) القسطاس المستقيم ص ١١ / ١٢ .

يكون في حالة تستدعى الخطاب بالحكمة أو تستدعى الخطاب بالموعظة الحسنة ، أو تستدعى الخطاب بالجدال بالتى هى أحسن حسب الأحوال التى تعتريه .

وقد استخدم النبى ﷺ هذه الأساليب مع مفاوضى قريش .

ففى المرة الأولى قرأ عليهم آيات فصلت .

وفي المرة الثانية قال لهم واعظا ومجادلا بالتى هى أحسن ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل على كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغت رسالات ربى ونصحت لكم وأن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وأن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم(٧٠) .

يقول أستاذنا الفاضل الدكتور محمود حب الله رحمه الله :

وبما أن الإسلام دين عام ، وهو دين منطق وحكمة ولا يهدف نحو تربية حاسة واحدة من حواس الإنسان ، بل نحو قوى الإنسان كلها من قلب وعقل وعاطفة كان من الطبيعى له أن يخاطب كل هذه القوى النفسية ويهذبها لتتضامن جميعها في الإيمان وفي تربية الشخصية الإنسانية الحقة(٧١) .

---

(٧٠) راجع الحلبية جـ ١ ص ٣٤٠ ، وراجع الشفاء جـ ٢ ص ٥٢٦/٥٢٧ شرح نسيم الرياض .

(٧١) الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ص ٢٨٧ .

وبهذا يمكن أن ندرك أن الأسلوب الذى دعت إليه الآية الكريمة هو أسلوب يصلح لطوائف الناس عندما تبرز هذه الخصائص متفرقة ، كما أنها كذلك تصلح لواحد من الناس تقويما لجميع قواه العقلية والقلبية والعاطفية وبذلك تنفرد الدعوة الإسلامية بأسلوبها الخاص بها في استخدام مناهج الفكر والعمل مع الجماعة بأسلوب غاية في التهذيب والبناء لجميع قوى الإنسان الذى تنقل إليه الدعوة ليكون ربانيا في دنياه وآخرته على السواء .

ب ـ قنوات الاتصال

رغم تطور وسائل الاتصال في العصر الحديث التى تستخدم في بث الأفكار والدعوة لمبدأ ما فإن الاتصال عن طريق اللغة والمقابلة الشخصية مازال هو العامل الأساسى فى توصيل أية دعوة لأن اللغة تمثل أهم طريقة للتفاعل الإجتماعى بين الأفراد وعن سبيلها يمكن الإلمام بمعرفة أحوال الناس والمشاركة في الأفكار والمشاعر والمعتقدات ونتيجة لهذا يمكن تحديد وتشخيص وحل المشكلات في المجتمع(٧٢) .

---

(٧٢) القيادة وديناميكية الجماعات ص ٧٨ .

وقد نشطت الدراسات الاجتماعية الحديثة في تصوير وسائل الاتصال بالجماعة عن طريق اللغة التى تعتبر وسيلة أساسية فعالة فى توصيل المبادىء للناس .

وقد توصل الدارسون الغربيون والشرقيون إلى وضع عدة وسائل منها :

١ ـ **المناقشة في الجماعة الصغيرة** : وقد حاولوا وضع تعريف لها فقالوا : إنها تبادل الأفكار والآراء وجهاً لوجه بين أعضاء جماعة صغيرة نسبيا (وتكون عادة من خمسة إلى عشرين) .

وحددوا سمات لهذه الوسيلة منها : أنها تتيح الحد الأقصى من التفاعل المتبادل بين الأعضاء وأنها تعلم الأعضاء التفكير في حيز إطار الجماعة الذى ينمى الإحساس بالمساواة وأنها تساعد على انبثاق قيادة(٧٣) ، ولقد سبق رسول الله ﷺ هذه الدراسات منذ أن توجه إلى تبليغ دعوة الله .

ففى أسباب النزول للواحدى : أن النبى ﷺ كان يناجى عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام و العباس بن عبد المطلب وأبيا وأمية ابنا خلف ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم فقام ابن أم مكتوم وقال : يارسول الله : علمنى مما علمك الله

---

(٧٣) القيادة وديناميكية الجماعات ص ١٩٨٣ .

وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه مشتغل مقبل على غيره[٧٤] .

٢ ـ جماعة الطنين : وهي وسيلة بديلة عن وسيلة « الحابل والنابل » التى تتفتت الجماعة فيها إلى وحدات صغيرة لتيسير المناقشة[٧٥] .

وطريقة الطنين هذه يقتصر فيها على عضوين اثنين فقط لمناقشة موضوع ما وقد سبق القرآن الكريم هذه الدراسة منذ فجر الدعوة حيث دعا المخاصمين إلى أن يقوموا قومة خالصة لله مثنى وفرادى

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ (سبأ : ٤٦)

٣ ـ الندوة : وهى طائفة من الأحاديث والكلمات أو الموضوعات يعرضها أشخاص لمفهوم مشكلة واحدة[٧٦] .

وقد سلف أن النبى ﷺ لما نزل قوله تعالى :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (الشعراء ٢١٤)

أقام لهم ندوة مرتين تكلم أبو لهب فى الأولى وعرض وجهة

---

(٧٤) أسباب النزول للواحدى ص ٤٧٨ .

(٧٥) القيادة وديناميكية الجماعات ص ١٩٩ .

(٧٦) القيادة وديناميكية الجماعات ص ٣٠٢ .

نظره وتكلم رسول الله ﷺ في الثانية وشرح لهم دعوته[77] .

٤ ـ **المناظرة** : هى محاورة تجرى بين شخصين من ذوى المعرفة القادرين على الحديث عن موضوع معين[78] .

وقد سبقت الدعوة الإسلامية بهذا الأسلوب في العمل بتبليغ الدعوة كما وقع بين الرسول والحصين[79] ، وسبق أن ذكرت كيف أسلم ضماد[80] وقد أسلم عمر بن عبسة السلمى[81] نتيجة محاورة بينه وبين الرسول ﷺ غير أن عنصر المحاورة هنا كان طبيعيا لا يحمل صفة التعصب أو التعنت وهو أمر غير سهل في العصر الحديث[82] .

٥ ـ **المقابلة** : وهى وسيلة متعددة الأساليب ، بالزيارة أو بالراديو أو التليفزيون .. الخ .

وقد كان رسول الله ﷺ دائما حريصا على أن تتم المقابلة بينه وبين خصوم الدعوة فإنه رغم الأذى الذى كان يدأب على تقديمه عقبة بن أبى معيط إلا أن رسول الله ﷺ كان يكثر من مجالسته ولما دعا النبى ﷺ لوليمة في بيته إثر عودته من سفر

---

(٧٧) راجع السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٥٨/٤٥٩ .
(٧٨) القيادة وديناميكية الجماعات ص ٢٣٣ .
(٧٩) راجع الحلبية جـ ١ ص ٣١٨ .
(٨٠ ، ٨١) راجع السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٥٢/٤٤٢ .
(٨٢) دراسات فى تنظيم المجتمع ص ١٧٠ / القيادة وديناميكية الجماعات ص ٢٣٩ .

استجاب له رسول الله ﷺ وما أكل حتى أنطقه شهادة التوحيد[٨٣] .

٦ - **المؤتمرات المؤقتة**[٨٤] : وقد استخدم النبى ﷺ المؤتمر المؤقت في أسلوب الدعوة حيث صعد على الصفا يوم أن نزل قوله تعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ وناداهم فاجتمع الناس إليه وكانوا بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسولا عنه ثم قال لهم : « لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم ، قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد[٨٥] .

والمؤتمرات الدورية هى مواسم الحج :

وقد كان النبى ﷺ يمر على الناس فى أسواق الحج يقول لهم : ياأيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا [٨٦] .

وقد كانت هذه الوسيلة هى ركيزة العمل التمهيدى لنقل الدعوة من مكة إلى طابة المدينة المنورة .

إن وسائل الدعوة التى استخدمها رسول الله ﷺ هى أمنية العاملين في الحقل الاجتماعي في العصر الحديث .

---

(٨٣) الحلبية جـ ١ ص ٣٥٢ .

(٨٤) دراسات فى تنظيم المجتمع ص ١٧٦ / القيادة وديناميكية الجماعات ص ٢٩٤ .

(٨٥) الوفا جـ ١ ص ١٨٣ .

(٨٦) الوفا جـ ١ ص ١٨٢ ، السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ١٥٩ وما بعدها .

وما يزيد المبشر في المجتمعات البدائية عن هذه الطريقة التى سنتها الدعوة الإسلامية كأسلوب ووسيلة لنشر دين الله ، إلا أنه ينفذها فقط .

وياليت شعرى لو أن بعثات الأزهر الشريف في آسيا وأفريقيا وهم يكتسبون بالإسلام رزقا واسعا ومركزا جليلا ليت شعرى لو أنهم أخلصوا العمل لله فامتثلوا وأحيوا سنة رسول الله ﷺ فى نشر الدعوة بهذه الوسيلة ، والله ما أعوز الناس يومها بعد ذلك جرعة دواء من يد كافر ولفتح الله لنا ولدينه في بلاد الله فتحا كثيرا .

وكما قالها رسول الله ﷺ :

لقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة .

ولكن متى كان لليت جواب ؟

أو : لعل أن يكون لها جواب إن شاء الله[87] .

وأما عن الاستجابة أو الاستفادة من الرسالة ، فلم تعرف الحياة إلى وقتنا الحاضر اتصالا تم بحرية كافية وأخذ أوضاعه في عملية النقاش والاستجابة والأخذ والرد مثل الدعوة الإسلامية .

وبينما يتشاجر علماء الاتصال حول ما أسموه بالفائدة

---

(٨٧) للأستاذ عبد السلام ياسين دراسة شيقة حول التؤدة ومنهج تبليغ الدعوة وتطبيق ذلك على بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة وذلك فى كتابه القيم : الإسلام بين الدعوة والدولة راجع موضوع التؤدة الإسلامية ص ١٤٨ مطبعة النجاح الدار البيضاء .

العائدة Feedback أو الاستجابة بالمنطق الإسلامي من حيث نقصان عملية الاتصال إذا لم تحظ بقسط من التغذية المرتدة كما يطلقون ذلك عليها فإن الدعوة الإسلامية قد سجل لها التاريخ أحداثا Feedback لا مثيل لها مع ضمان حرية الرأى ، وحرية اختيار وسيلة الدعاية أو أسلوب الاتصال وقد كانت أساليب المستقبل غاية في الغرابة والجاهلية ومع ذلك فإن حجم الاستجابة أو الفائدة العائدة Feedback يعتبر أجل حدث في عالم الاتصال النزيه الإنساني الايجابى لأنه استخدم وسيلة اتصال لفظى : ساحر ، مجنون .. الخ وغير لفظى : حبس المسلمين في شعب بنى هاشم ، وتعذيب المسلمين .. الخ .

وقد تم كل هذا وهم لهم في قرارة أنفسهم إيمان بالتغذية المرتدة فوق ما يتحمل العقل الذى يستمع إلى كبرهم بينما هم يصدقون في عمق شعورهم

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الأنعام ٣٣)

ولعلنا نعرض ذلك بشىء من الشرح والبيان فقد كان في مكة في الوقت السابق على البعثة نظام حنيفى موحد .

والقوم كانوا ينتسبون إلى جدهم الأكبر إبراهيم المسلم الحنيف .

والمنهج الذى سلكته الدعوة له أصالة ذاتية في الحصول

على ثمار جيدة النوع والمحصول ، ولكن قريشا جابهت الدعوة مجابهة عنيدة عنيفة فلماذا ؟

لماذا رفضت قريش دعوة الله ؟

أرفضتها مع اعتقاد فى عدم صحتها ؟

أم رفضتها لأسباب أخرى ؟

أما الإجابة عن السؤال الأول فإنها لم ترفض الدعوة اعتقادا في عدم صحتها .

ـ فالوليد بن المغيرة يشهد ويقسم :

والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة[88] .

ـ وعتبة بن ربيعة يقول لقومه :

قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم[89] .

ـ والنضر بن الحارث وهو رأس العداء للدعوة يقول لقومه وقد أصابتهم « حيرة وتلجلج » .

« يا معشر قريش إنه والله قد تنزل بكم أمر اتيتم له بحيلة بعد قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم

---

(٨٨) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٨٩) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤ .

حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحرا لا ، والله ما هو بساحر(٩٠) .

وقد أرسلت قريش وفدا منها إلى أحبار اليهود يسألونهم عن محمد ﷺ لقد بعثوا وفدا مكونا من عصبة النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط وكلاهما يكن للدعوة والداعية بغضا وكرها ويود بجدع الأنف أن يصل إليها بسوء وسألا أحبار اليهود فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهم فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

ــ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم ، فإنه قد كان لهم حديث عجيب .

ــ وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه .

ــ وسلوه عن الروح ما هى ؟

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبى وإن لم يفعل فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم(٩١) .

ورجع الوفد وسألوا النبى ﷺ ونزل القرآن الكريم حسبما

---

(٩٠) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٣٠٠ / ٣٠٨ .

(٩١) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٩ / ٣٠٠ . راجع الحلبية جـ ١ ص ٣٤٧ .

شاء الله أن يوحى إلى نبيه ، وعرفوا أنه الحق ولكنهم مع ذلك لم يؤمنوا ، وبهذا تمت الاستجابة للاتصال المرغوب فيه .

جـ - منهج العمل مع الجماعة

الدعوة الإسلامية حركة بناء لمجتمع يحقق الخلافة عن الله في عمارة هذه الأرض بواسطة جهود الإنسان المؤمن الذى يسلم وجهه لله وهو محسن ، حركة بناء : هى تعمل مع الجماعة الإنسانية ، والعمل مع الجماعة الإنسانية في العصر الحديث أخذ شوطا بعيدا في الدراسة والتوصيف والتخطيط والإعداد .

والمنهج الإسلامي الذى قدمته الدعوة الإسلامية للعمل مع الجماعة هو المنهج الرائد للمعارف الاجتماعية كلها وهو الأصل الذى تدين جميع الدراسات الاجتماعية المعاصرة فيما يتعلق بالصلة بين الرائد صاحب الدعوة والفكرة والجماعة التى يريد أن ينقل إليها دعوته أو فكرته .

لقد تناولت الدراسات الحديثة في توصيف منهج العمل مع الجماعة مجموعة من المبادىء أو الخطوات التى يلتزم بها الرائد الاجتماعى ، وهى بأفرادها أو بمجموعها لقطات من العمل الإسلامي في العهد المكى .

لقد تحدث الكاتبون في الدراسات الإجتماعية عن : ثقة الداعية بنفسه وتحديد أهدافه وحسن عرضه للمبادىء التى

يدعو إليها ، وإيجاد استقطاب حول دعوته والتعرف على المجتمع وتنظيم قيادة محلية[٩٢] .. الخ ، ومجىء هذه الدراسات مؤخرا يفرض عليها صفة التلمذة للمنهج الإسلامى من جانب ، وصفة العرض من جانب آخر وقد شهد بهذا المنطق بصفة عامة كاتبان من الغرب .

ـــ لقد تحدث (بريفولت) في كتابه « بناء الإنسانية » عن المنهج التجريبى المنسوب إلى : « روجيه باكون » وأكد أنه منهج إسلامى وأن « روجيه » ما هو إلا واحد من رسل العلم الذين تربوا بالمنهج الإسلامى إلى أوروبا[٩٣] .

ـــ والكاتبة الألمانية : « زيجريد هونكه » وضعت كتابا عن فضل الإسلام والعرب على أوروبا جعلت عنوانه : « شمس الله على الغرب أو فضل العرب على أوروبا »[٩٤] .

إن منهج العمل مع الجماعة الذى قدمته الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة هو وحده المنهج الأول الذى احترم عقل الإنسان وكرامة الجماعة وقدم خطواته مع الصدق والحق بعيدا عن بريق الدعايات الكاذبة والبيانات المضللة

---

(٩٢) راجع : مبادىء تنمية وتنظيم المجتمع دكتور عبد المنعم شوقى ص ٨٧/٩٦ الخدمة الاجتماعية والمجتمع دكتور أحمد كمال أحمد ، وعدلى سليمان ص ١٧٢/ ١٨٣ في خدمة الجماعة محمد شمس الدين أحمد ٧ ثالثة ص ١٣ / ١٥٥ الخدمة الاجتماعية محمد كامل البطريق ص ٩٢ / ٩٧ .

(٩٣) الإسلام والإيمان ص ١٢ / ١٣ .

(٩٤) شمس الله على الغرب ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على دار المعارف مصر ١٩٦٩ .

والتمثيليات التى يتقمصها رواد العمل الإجتماعى في العصر الحديث ، وقلب معايير الحقيقة وخداع الرأى العام بما لديهم من قدرة إعلامية تخدع الأذن ، وتزكم الحس وتشوش على الفكر وتجمد الذكاء .

والمنهج الذى قدمته الدعوة الإسلامية للعمل مع الجماعة قدمته وطبقته وهو المنهج الوحيد الذى أنتج إنتاجا دائما خالدا ، هذا المنهج يقوم على ثمان قواعد :

القاعدة الأولى : ثقة الداعية .
القاعدة الثانية : تحديد الهدف .
القاعدة الثالثة : التعرف على المجتمع .
القاعدة الرابعة : تربية قيادات تعمل مع الداعية .
القاعدة الخامسة : عرض الدعوة عرضا واضحا .
القاعدة السادسة : إحداث استقطاب كامل حول الدعوة .
القاعدة السابعة : السلوك المطابق للدعوة .
القاعدة الثامنة : الصبر والتحمل حتى تظهر حقيقة الهدف من الدعوة .

أولا - ثقة الداعية

الحديث عن ثقة الداعية هنا ، يشتمل على عنصرين :

العنصر الأول : ثقة الداعية في نفسه .

العنصر الثانى : ثقة المجتمع في الداعية .

أما فيما يتعلق بثقة الداعية في نفسه ، فقد عبر عنها النبى ﷺ أصدق تعبير .

« والله لو وضعوا الشمس في يمينى ، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ما تركته »(٩٥) .

إن الجو الذى قيلت فيه هذه الجملة المنهجية جو الكثرة العاتية التى تهجم بكلكلها على النبى ﷺ فلو كانت شخصية الرسول ﷺ لا تساوى في وزنها الاجتماعى ثقل المجتمع المتكأكىء عليه بالخيل والرجال والرأى والحفيظة لما أمكن أن يضع هذا المعيار الخالد الذى يصور المستوى السامق في عزة النفس والثقة بالله وبالإسلام وبما يدعو إليه مما ينبغى أن يتسلح به الداعية .

لقد كانت ثقة الرسول ﷺ بنفسه كداعية؛أسلم وجهه لله وهو محسن تفوق قدرة البشر حتى ولو تقدموا علميا أو

---

(٩٥) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٦ الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٦٤ الحلبية جـ ١ ص ٣٢٣ .

تكنولوچيا واستطاعوا أن يخلعوا قرص الشمس من فلكها وينتزعوا القمر من هالته وحاولوا أن يقنعوه فيما بعد لو صح لهم أن يضعوا هذه الشمس المخلوعة من فلكها في يمينه ، وهذا القمر المنتزع من هالته في يساره ، ما قبل وما وثق وما رضى،ولستمر على دعوته لأنها أحق مما وصلوا إليه لو كانوا يقدرون .

والرسول ﷺ بهذا يحدد مستوى الثقة بالنفس للداعية الإسلامى الذى يضطلع بأعباء العمل للدعوة الإسلامية ، وفي نفس الوقت يشاء الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا المستوى من الثقة بالنفس خاصا بالداعية الإسلامي ، لأنه مستند في ثقته بالنفس إلى الإيمان بالله العلى الكبير

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ (المنافقون ٨)

ولم تكن ثقة كثقة الزعماء فإن الأنبياء رحمة وحنان،وثقة الزعماء قسوة وطغيان .

ولله در المناجى :

بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال :

﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ ولو دعوت علينا لهلكنا من عند آخرنا فقد وطىء ظهرك ، وأدمى وجهك ،

وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا ، وقلت : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون »[96] .

إنها ثقة الذى نعتته السماء .

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم ٤)

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة ١٢٨)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء ١٠٧)

وأما ثقة المجتمع بالداعية فقد أجمع الناس طرا في مكة المكرمة على أن يفردوه وحده بلقب الأمين وعادة المجتمع الجاهلى فارغة من الألقاب خالية من تقاليد النياشين .

لقد كانت الفروسية وإمارة الشعر تنتزع انتزاعا من ساحات الوغى وأسواق القريض ومعارض الفكر .

غير أن ثقة المجتمع في أخلاق محمد ﷺ قبل أن يبعث ألزمت المجتمع أن يزكوا هذه الشخصية الفريدة فيه فأجمعوا على أن يلقبوه « بالأمين » .

يقول ابن هشام :

وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى الأمين[97] .

---

(٩٦) الشفاء شرح على القارىء جـ ١ ص ٢٥٠ .

(٩٧) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ١٩٨ .

وعبارة (زاد المعاد) تضفى على أبعاد هذه الأمانة أنوارا تبرز قسماتها :

وأما الأمين : فهو أحق العالمين بهذا الاسم فهو أمين الله على وحيه ودينه وهو أمين من في السماء وأمين من في الأرض ولهذا كانوا يسمونه قبل النبوة بالأمين(٩٨) .

ولم يكن اسما أو لقبا خاليا من وضعه على محك الأحداث والتجارب فقد اختبرت قريش نفسها في مقدار ما تكنه لهذا الإسم من التقدير والثقة فلما استحكم الخلاف بينهم عندما تم بناء الكعبة ووصل الأمر إلى قاب قوسين أو أدنى من الحرب الضروس التى تهلك النسل والحرث وتخرب الديار وتدمر البلاد ارتضوا أول داخل عليهم ليكون حكما بينهم .

إنهم ما كانوا يفكرون في شخصية الداخل بقدر ما حملهم النزاع على أن ينتهوا من هذا النزاع الذى شحن الجو بدخان الحرب ، ولو كان غير محمد ﷺ لاندلعت الفتنة من جديد وربما قامت الحرب ، ولكنها كلمة قالوها وشاء الله أن تكون عليهم حجة إلى يوم القيامة فلما دخل محمد ﷺ قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد(٩٩) .

إن الأخنس بن شريق لقى أبا جهل يوم بدر فقال : ياأبا

---

(٩٨) زاد المعاد جـ ١ ص ٢٣ ، راجع الشفاء شرح نسيم الرياض جـ ١ ص ١٧٩ .
(٩٩) ابن هشام جـ ١ ص ١٩٧ .

الحكم أخبرنى عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا غيرى وغيرك .
فقال له ، والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط [١٠٠] .

فيقسم ويؤكد ويثبت الصدق بطريقتين : الإيجاب والسلب معا ثم يؤكد ذلك بالتأكيد الأخير « قط » .
لقد كانت ثقة المجتمع فى الداعية مبنية على وضوح فى سلوكه ومعرفة تامة بأخلاقه ومعاملة مستمرة تظهر فى كل يوم جليل خلقه ، ونفيس صدقه ، وعظيم وفائه ، ورفيع محبته للناس جميعاً .

ولقد كانت ثقة الداعية بنفسه قائمة على ثقته بربه ، وثقته بالحق الذى يدعو إليه وثقته بنصر الله .
وتلك هى التى تعوز جميع قادة العمل الاجتماعى فى العصر الحديث [١٠١] ، وتلك التى امتازت بها نظم العمل مع الجماعة فى منهج الدعوة الإسلامية منذ ذلك الفجر البعيد وذلك ما ينقص بعض الدعاة المعاصرين الذين تسببوا فى اتهام الدين باتخاذه تجارة وأنه مصدر إرهاب .

---

(١٠٠) الشفاء شرح على القارى جـ ١ ص ١٨١ الدرر ص ١٩٢ .
(١٠١) راجع اكتساب ثقة الأهالى فى كتاب مبادىء تنمية وتنظيم المجتمع دكتور عبد المنعم شوقى ص ٩١ مع ملاحظة أنه ليس فى قصدى ربط مقارنة بين عمل البشر ووحى السماء .

ثانياً : تحديد الهدف

* لقد جمعهم رسول الله ﷺ فى مؤتمر عائلى خاص وأعطاهم من الأمان والراحة ما آنسهم ثم قال لهم :« الحمد لله أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ثم قال : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إله إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا »(١٠٢) .

فهو نبى لهم وللناس عامة .

يدعو إلى توحيد الله والإيمان بالبعث والحشر والحساب والجنة والنار .

وهو فى سبيل هذا لا يسألهم أجراً وقد حدد لهم هذا بوضوح :

« ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكمْ رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى

(١٠٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٢ ص ٦١ .

الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » [١٠٣] .

لقد عرضوا عليه فعلاً الدنيا بحذافيرها .

لقد عرضوا عليه الملك .

وعرضوا عليه المال .

وعرضوا عليه الرياسة والشرف [١٠٤] .

فرفضها كلها .

لقد رفضها رفضاً قوياً لأنها ليست واحدة من أهداف الدعوة .

لقد رفضها بأسلوبه النبوى الأخاذ ورفضها بما أوحى إليه من عند ربه .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

(الفرقان ٥٧)

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سبأ ٤٧)

---

(١٠٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٦ .

(١٠٤) راجع شرح المواهب للإمام الزرقانى جـ ١ ص ٢٥٧ / السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣٤٠ / راجع الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٣ .

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

(ص ٨٦)

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(الشـورى ٢٣)

يقول الطبرى فى معنى بعض هذه الآيات :

ما أتبعِ إلا وحى الله الذى يوحيه إلىّ وتنزيله الذى ينزله علىّ فى كل ما أقول لكم وأدعوكم إليه .[١٠٥]

إنى لم أسألكم على ذلك جعلا فتتهمونى وتظنون أنى إنما دعوتكم إلى اتباعى للمال آخذه منكم .[١٠٦] .

ومعنى قوله فهو لكم أى لا أسألكم شيئاً كقول القائل مالى من هذا فقد وهبته لك يريد ليس لى فيه شىء .[١٠٧] .

إنما الذى يريده هو اهتداء الإنسان إلى ربه وتقربه إلى الله الحق إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .. هذا وحده هو أجره يرضى قلبه الطاهر ويستريح وجدانه النبيل أن يرى أهله والناس عامة قد اهتدوا إلى صراط الله العزيز الحميد .

---

(١٠٥) بتصرف الطبرى جـ ٧ ص ١٩٩ .

(١٠٦) الطبرى جـ ٢٢ ص ١٠٥ .

(١٠٧) معالم التنزيل لابى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى جـ ٥ ص ١٩٥ ٧ ثانية م حلبى .

وينفى الرسول ﷺ ذلك مرة أخرى فى إطار منهج الدعوة العام الذى سلكه موكب الأنبياء من قبل .

فيردد لقريش وللدنيا كلها من بعد ما قاله إخوانه الأنبياء :

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٩ ﴾

لقد قالها نوح (آية رقم ١٠٩ من سورة الشعراء) .

وقالها هـود .

وقالها صالح .

وقالها لـوط .

وقالها شعيب .

وهو نص واحد لا يتغير ولا يتبدل ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠ من سورة الشعراء) .

لقد طمأنهم النبي ﷺ إنه لا يريد شيئاً من حطام الدنيا فماله فيها من مأرب وما يطلب منهم أجراً جزاء دعوتهم وهدايتهم إلى الله ، إنما هو يطلب أجره من رب الناس الذى كلفه دعوة الناس إلى الصراط المستقيم .

ذلك هو طريق الأنبياء جميعاً وهو تنبيه يبدو أنه كان ضرورياً للدعوة الصحيحة حتى تتميز عما عهده الناس من الكهان ورجال الأديان من استغلال الدين لسلب أموال العباد

وهو توضيح لطبيعة الدعوة وبيان للشرف النبيل الذي يضطلع به الداعية المنتسب إليها(١٠٨) .

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(الجاثية ٢٦)

ـ ولتحاسبن بما تعملون :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

(القارعة ٦ ـ ١١)

ـ وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (هود ١٠٥ / ١٠٨)

---

(١٠٨) فى ظلال القرآن جـ ١٩٠ ص ٩٩/ ١٠٠ .

لقد حدد الرسول ﷺ هدف الدعوة بوضوح تام ونفى كل شبهة وجابه كل محاولة تريد الانحراف بهدف الدعوة وذلك التحديد للهدف والوضوح فيه هو ما يعوز جميع أنماط العمل الإجتماعى فى العصر الحديث .

وشتان ما بين هدف يتوجه إلى الله وهدف يريد أن يصيب دنيا أو امرأة ينكحها .. « إن الرائد لا يكذب أهله » .

والله ما كذب أهله ولا كذب أحدا من الناس بل كان لهم رحمة وهدى للعالمين ، وبقى علينا أن نتأسى بالنبي ﷺ فى عرض أهداف الدعوة بدل أن نتخذ من سيرة المجاهدين قميصاً تتخفى وراءه أطماع لا تغيب عن رب العالمين .

ثالثاً : التعرف على طبيعة المجتمع

التعرف على المجتمع : عاداته وتقاليده وأنماط الثقافة فيه جزء من وظيفة الاخصائى الاجتماعى الذى يؤهل للعمل مع الجماعة فى حقل الخدمة الاجتماعية .

ووسيلة التعرف على المجتمع هى الدراسة كما شرحها الكاتبون فى خدمة الجماعة ، ولكن التعرف الذى يحتاج إليه علم وفن خدمة الجماعة [١٠٩] . هو تعرف سطحى ويحتاج إلى زمن ثم هو تعرف على المجتمع من جانب الخادم الاجتماعى أو الأخصائى الاجتماعى وهنا تبرز علمية المنهج الإسلامى فى العمل مع الجماعة بصورة أجمل وأسمى وأشمل وأوسع لأنها تأخذ مفهوم التعرف على المجتمع التبادل المعرفى بين طبيعة المجتمع وطبيعة الداعية .

لقد تعرف النبي ﷺ على طبيعة المجتمع بأسلوب الممارسة والإشتراك وهو نمط أقوى فى إدراك حقائق الأمور من الدراسات المستعجلة التى يحاول إتقانها الأخصائيون فى العصر الحديث .

لقد عاش النبي ﷺ مع المجتمع الذي سينقل إليه الدعوة

---

(١٠٩) راجع مبادىء تنمية وتنظيم المجتمع دكتور عبد المنعم شوقى ص ٩٤ ، الخدمة الاجتماعية محمد كامل البطريق ص ١١١/ ١١٢ ٧ ثانية ١٩٦٢ م الانجلو ، دراسات فى تنظيم المجتمع دكتور سيد ابو بكر حسنين ص ٨٧ ط اولى ١٩٦٩ ، فن خدمة الجماعة دكتور محمد شمس الدين احمد ص ٥٠ / ٥١ ط ثانية ١٩٦٣ .

عيشة المستوعب لثقافة البيئة دون أن يغامس حياة المجتمع فى اتجاهاتها التى تؤثر مستقبلاً عليه فهو لم يغفل عنها ولم ينغمس فيها بل عاش حياة المجتمع الفاضلة فكان راعياً للغنم عند أمه حليمة . وكان راعياً للغنم عند قريش على قراريط (١١٠) .

وكان تاجراً معهم فى السوق (١١١) .

وكان قاضياً لهم فى مدلهمات الأمور عند وضع الحجر الأسود (١١٢) ، واشترك معهم فى حلف الفضول (١١٣) .

لقد عاش معهم الحياة الاجتماعية فى مستواها العفيف .

وعاش معهم الحياة السياسية فى مستواها العادل الواضح .

وعاش معهم الحياة الاقتصادية فى مستواها الأمين الحلال .

ومع هذا فما سجد لصنم قط ولا حلف باللات والعزى ولا

---

(١١٠) ابن هشام جـ ١ ص ١٦٧ / الحلبية جـ ١ ص ١٤٩ / وراجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٢٥ / البيهقى جـ ١ ص ٣٣٦ دلائل النبوة .

(١١١) ابن هشام جـ ١ ص ١٨٧ / الحلبية جـ ١ ص ١٥٧ / الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٢٩ / ١٣٠ .

(١١٢) ابن هشام جـ ١ ص ١٩٧ / الحلبية جـ ١ ص ١٧٢ .

(١١٣) ابن هشام جـ ١ ص ١٣٣ / الحلبية جـ ١ ص ١٥٣ / الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٢٨ السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٢٥٧ .

احتفل بعيد ولا شرب لهم خمراً ولا طعم لهم ذبيحة ذبحوها على النصب (١١٤) .

لقد عصمه الله جل شأنه منذ اختاره لهداية البشر رسولاً مبشراً ونذيراً .

لقد كانت لديه ممارسة كاملة بالجانب الرفيع من ثقافة المجتمع وكانت عنده حصانة فطرية لا يقدر معها على الانجذاب إلى ثقافة لا تتفق مع سويته التى خلق بها ليكون للعالمين نذيرا .

فهو لم يندمج كلياً فيغامس من حياة المجتمع كلها .

ولم ينعزل عنها فيجهلها كلها .

لقد كان موجوداً فى أوساطها لا فى وسطها فهو فى المجتمع يشترك مع فضليات الأخلاق وعظام الأمور وهو فى المجتمع يرى وينأى على شرور البشر .

لقد كان إيجابياً مع الحياة الفاضلة .

وكان سلبياً بالطبع مع الحياة التى لا تتفق مع طبيعته ، فقد عصمه الله من كل سوء ، لقد كان منفتحاً على المجتمع كله بذاته وطهارته وكان هو كذلك معروفاً للمجتمع .

---

(١١٤) تاريخ الأمم الإسلامية جـ ١ ص ٦٥ الشيخ محمد الخضرى ٧ ثامنة ١٣٨٢ هـ ابن هشام جـ ١ ص ١٨٣ الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ١٥٥ الدلائل للبيهقى جـ ١ ص ٣١٥/٣١٣ السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٢٥٢/٢٥٠ راجع الخصائص الكبرى للسيوطى جـ ١ ص ٢٢٦/٢٢١ و٢٤٦/٢٢٧ الشفاء شرحى نسيم الرياض وعلى القارى جـ ٣ ص ٢٨٠/٢٧٩ .

لقد كان معروفاً منذ اللحظة الأولى التى ولد فيها .

كان معروفاً فى فترة رضاعته .

وكان معروفاً فى فترة حضانته مع أمه .

وكان معروفاً فى حضانته مع جده وعمه .

لقد كان معروفاً وهو طفل .

وكان معروفاً وهو غلام .

وكان معروفاً وهو شاب .

معروفاً بالأمانة والخلق الرفيع وكان محل الإكرام والتقدير والتبجيل من كل أطراف المجتمع .

ولم يحظ نبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يحظ قط زعيم من الزعماء فى الغابر والحاضر والمستقبل بانكشاف تام لحياته الفاضلة وتعرف كامل على شخصيته الكبيرة الفذة إلا محمد ﷺ .

ـ لقد قال فيه أبوه من الرضاع وهو لا يزال طفلاً صغيراً .

والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة (١١٥) .

ـ وقالت فيه أمه حليمة :

لما دخلت به ﷺ إلى منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك وألقيت محبته ﷺ واعتقاد بركته فى قلوب الناس (١١٦) .

---

(١١٥) الحلبية جـ ١ ص ١٠٧ المواهب جـ ١ ص ١٢٤ ابن هشام جـ ١ ص ١٦٣ ، دلائل البيهقى جـ ١ ص ١٠٩ .

(١١٦) المواهب جـ ١ ص ١٤٥ الحلبية جـ ١ ص ١١٠ .

ـــ وقالت أمه آمنــة :

والله ما للشيطان عليه سبيل وأن لإبنى لشأنا [١١٧] .

ـــ وقال فيه رجال من نصارى الحبشة :

إن هذا الغلام كائن له شأن نحن نعرفه [١١٨] .

ـــ وقال فيه جده عبد المطلب :

يا بركة لا تغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب يزعمون أنه نبي هذه الأمة [١١٩] .

ـــ وقال عنه أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمــام بــوجهــه
ثمــال اليتامى عصمــة الأرامل [١٢٠]

ـــ وقال بحــــيرا :

فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم نجده فى كتبنا ورويناه عن آبائنا ، وأعلم أنى قد أديت لك النصيحة [١٢١] .

ـــ وقالت خديجة رضى الله عنها :

---

(١١٧) ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥ الحلبية جـ ١ ص ١١٣ .

(١١٨) ابن هشام جـ ١ ص ١٦٧ ، الحلبية جـ ١ ص ١١٤ السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٢٣٢ .

(١١٩) الحلبية جـ ١ ص ١٣١ ، الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١١٨ ، السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٢٤٠ .

(١٢٠) المواهب جـ ١ ص ١٩٣ ، وفيها شعر طويل والحلبية جـ ١ ص ١١٨ ، دلائل البيهقى جـ ١ ص ٢٢٣ ، الخصائص جـ ١ ص ٢١٤ ، ٣١١ .

(١٢١) الحلبية جـ ١ ص ١٤٢ ، وابن هشام جـ ١ ص ١٨٢ .

يا ابن عم : إنى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك فى قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك [١٢٢] .

ــ وقال له ورقة :

... ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه [١٢٣] .

ــ وقد كان الخصوم معه أشهد الناس بكماله وسموه ورفعته وطهارته يقول أبو جهل :

والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط [١٢٤] .

ــ وقال النضر بن الحارث :

قد كان محمد غلاماً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة [١٢٥] .

ــ وقال له عتبة :

يا ابن أخى أنت منا حيث قد علمت من السِّطة فى العشيرة والمكانة فى النسب [١٢٦] .

ــ ويقول الوليد بن المغيرة :

إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناء [١٢٧] .

---

(١٢٢) ابن هشام جـ ١ ص ١٨٩ ، السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٢٦٣ .
(١٢٣) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٥٤ ..
(١٢٤) أسباب النزول للواحدى ص ٢١١ .
(١٢٥) ابن هشام جـ ١ ص ٢٢٩ .
(١٢٦) ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٣ .
(١٢٧) ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٠ .

ـ لقد كان معروفاً لأبناء مجتمعه القريب وكان معروفاً لأبناء مجتمع دعوته البعيد فقال فيه النجاشي :

أشهد أنه رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى (١٢٨) .

ـ وقال فيه كسرى :

فلو أني أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه (١٢٩) .

والقرآن الكريم يضع هذا الانفتاح بكلتا شطريه فى موضع الاستدلال على صدق نبوته ﷺ .

يقول الله تعالى :

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾

(يونس ١٦)

« لبثت» فوجودى مشهود كله لكم .

« فيكم » وأنتم مشهودون لى .

والحياة مكشوفة بيننا وأنتم تعرفون عنى كل شىء حتى كيف تزوجت وكيف سافرت وكيف عاشرتكم .

وأنتم مكشوفون لى عادة وسلوكاً وأخلاقاً .

ولهذا نفى القرآن عنهم فى هذا الاستفهام التأنيبي

---

(١٢٨) الحلبية جـ ١ ص ٣٧٧ الخصائص جـ ١ ص ٢٨٠ .

(١٢٩) فتح البارى جـ ١ ص ٤٠ / ٤١ .

المزلزل ... نفى عنهم التعقل فإن حياة محمد ﷺ معلومة لهم لا تحتاج فى إدراك نبوته إلى علم فأمانته وسطته ونسبه مشهوران معروفان وهى كلها تؤهله مع تاريخه المجيد لأن يكون للعالمين رسولا .

رابعاً - تربية قيادة :

دار الأرقم بن الأرقم :

ــ اختيار القيادة :

إن الجهر بالمبادىء فجاءة عملية خطيرة مراهقة لا يوصى بها المشتغلون فى حقل الخدمة الإجتماعية .

وإعداد القيادة داخل المجتمع قبل إعلان المبادىء جزء من منهج العمل مع الجماعة توصى به وتؤكده الدراسات الاجتماعية التى نيط بها وظيفة التغيير الاجتماعى المرغوب فيه (١٣٠) .

وهذا المبدأ قد أسسته من قبل الدعوة الإسلامية فى « دار الأرقم بن الأرقم » حيث اختار النبي ﷺ الأشخاص الذين توسم فيهم الاستجابة لدعوته (١٣١) ، ثم تعهدهم بعيداً عن المجتمع وثقافاته بالتربية والإعداد .

---

(١٣٠) دراسات فى تنظيم المجتمع ص ١٥٥ ، الخدمة الاجتماعية والمجتمع ص ١٧٩ .

(١٣١) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٢٧ ، سيرة الرسول عزة دروزة جـ ١ ص ١٧٨ ، وراجع من حضارة الإسلام جـ ١ ص ١٩ .

وأول من اختارهم رسول الله ﷺ الصق الناس به من آل بيته وأصدقائه فآمنت خديجة رضى الله عنها وزيد بن حارثة مولاه وعلى بن أبى طالب وصديقه الحميم أبو بكر وورقة بن نوفل (١٣٢) .

ثم راح رسول الله ﷺ ينتخب الأخيار المصابيح ويدعوهم إلى الإسلام يعاونه فى ذلك سيدنا أبو بكر رضى الله عنه فقد تعرف على وظيفته بفطرته فجعل يدعو إلى الإسلام كل من وثق به من قومه (١٣٣) .

واتخذت هذه المرحلة دوراً خاصاً حتى تكتمل التربية للقيادة بعيداً عن جاذبية المجتمع التى تضغط دائماً على المبادىء فى مهدها لتموت ، ولذا فقد كان النبي ﷺ يتخير الأشخاص أولاً ، ثم ينئيهم عن الضغط الاجتماعى حتى تسربت مبادىء الإسلام إلى المجتمع كالنور يقهر الظلام رويداً رويداً .

يقول فى ذلك ابن هشام :

ثم دخل الناس فى الإسلام إرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام بمكة وتحدث به ، ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه به (١٣٤) .

---

(١٣٢) ٩٨ الحلبية جـ ١ ص ٣٠٢ وما بعدها ص ٣٠٦ ، الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥٩ .. المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٤٤ ـ ٢٤٦ .

(١٣٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٠ ، الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥٩ .

(١٣٤) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٦٢ الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥٩ .

وتأتى هذه القضية واضحة فى قضية إسلام سيدنا على رضى الله عنه، روى البيهقى :

ثم إن عليا بن أبى طالب رضى الله عنه جاء بعد ذلك فوجدهما يصليان فقال على : ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله ﷺ : دين الله اصطفاه لنفسه وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته وتكفر باللات والعزى .

فقال على : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمرا حتى أحدث به أبا طالب وكره رسول الله ﷺ أن يفشى على عليه سره قبل أن يستعلن أمره فقال له :

يا على إذا لم تسلم فاكتم .. فمكث على تلك الليلة حتى جاءه فقال : ما عرضت على يا محمد ، فقال رسول الله ﷺ : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد ، ففعل على وأسلم فمكث على خوف من أبى طالب وكتم على إسلامه ولم يظهره (١٣٥) .

واستمر على هكذا مستخفياً يصلى مع رسول الله ﷺ فى شعاب مكة بعيداً عن أعين الناس حتى عثر عليهما أبو طالب يوماً وهما يصليان فقال أبو طالب لعلى : أى بنى : ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ فقال : يا أبت آمنت بالله ورسوله ،

---

(١٣٥) دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤١٤ ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٨ .

وصدقت بما جاء به ، وصليت معه لله واتبعته ، قال ابن هشام فزعموا أنه قال له : إنه لم يدعك إلا على خير فالزمه (١٣٦) .

* * *

مستوى تربية القيادة :

وكانت تربية النبي ﷺ لهذا الرعيل على المستوى الرفيع سيكولوچيا ووجدانياً وبقدر ما أتيح له عليه الصلاة والسلام مالياً واقتصادياً .

لقد أخذ الداعية الأول ﷺ على نفسه مسئولية إعداد قيادة يصل بها الفكر إلى أرفع مستويات العقيدة وضوحاً وشمولاً ، كما أخذ على نفسه مسئولية حمايتها من الجوع الذي يتعرض له إن عن للواحد منها فى هذه المرحلة شىء من ذلك .
ــ أما المستوى الوجدانى الذى وصلت إليه التربية فإن سعد ابن أبى وقاص رضى الله عنه وهو شاب فى التاسعة عشرة من عمره يمثله ، وقد كرهت أمه دخوله فى الإسلام ، وكان بها باراً رفيقاً مهذباً أنيساً ، فهددته « لا تأكل ولا تشرب حتى يكفر ويرتد وإلا ماتت فيعير بها فيقول لها » : (تعلمين والله

---

(١٣٦) ابن هشام جـ ١ ص ٢٤٧ الحلبية جـ ١ ص ٣٠٦ الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٥٨ تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣١٤ .

يا أمي ، لو كان لك مائة نفس تخرج نفساً نفساً ما تركت دين هذا النبي ﷺ فكلي إن شئت أولا تأكلي ، فأكلت) [١٣٧] .

وإذاً فليس من الجيد علمياً أن يقال : سرية الدعوة فإن الحق الذى سجله التاريخ هو وضوح الدعوة واشتهارها وسرية العمل لها إعداداً للقيادة وتربية لهم ليحملوا مع الداعية وظيفة العمل عند الصدع بها عامة والجهر بها للناس كافة .

وبقى أن يعرف الشباب المعاصر أن التحمس للدعوة يجب أن يأخذ أسلوباً علمياً وإسلامياً حتى نطبق المنهج الذى ورثناه .

خامساً ـ العرض الواضح :

نجاح أية دعوة واستمرارها يتوقف على مقدار عرضها عرضاً واضحاً صادقاً يضمن لها الوضوح والثقة دائماً فى المستقبل [١٣٨] .

وواضح فى العصر الحديث أن أهداف الدعوات لا يفصح عنه ويستخدم الزعماء شعارات براقة يخفون وراءها الهدف الأسود حتى إذا ما أتيح لهم إعلانه بأسلوب القهر أو

---

(١٣٧) الحلبية جـ ١ ص ٣١٢ / ٣١٣ ، اسباب النزول للواحدى ص ٣٥٦ / ٣٥٧ ، تفسير روح المعانى جـ ١٩ ص ١٣٩ .

(١٣٨) من حضارة الإسلام للأستاذ عبد العزيز سيداً لأهل جـ ١ ص ١٣ / ١٥ .

السيطرة وإلغاء العقل والإرادة والكرامة فإنهم لا يألون جهداً فى ذلك ويفسرون نداءاتهم الأولى بعذب من الحديث المخادع وبذلك لا تلبث أن تنتشر الناس والجماهير من حولهم كما هى طبيعة الزبد يذهب جفاء وتبقى الحسرة والغيظ والكمد والحيرة والآلام والضيق والعسر للناس من بعد .

ولذلك فإن الدعوة الإسلامية حرصت وهى تعقد منهج العمل مع الجماعة على أن يكون الهدف من الدعوة واضحاً ولذلك اتخذ عرض الدعوة زمناً فسيحاً زهاء ثلاثة أعوام على ما رواه العلماء (١٣٩) واتخذت لذلك أسلوباً واضحاً جليا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم .

ووضوح العرض هنا يراد منه :

— وضوح الهـــدف .

— ووضوح الدليل .

أما وضوح الهدف فقد استفاض النص المعصوم من القرآن الكريم ، أو الأثر النبوى الشريف فى تحديد المراد من الدعوة الإسلامية .

لقد كان تحديد الهدف بارز المعالم ، فصيح المنطق قوى الأسلوب .

---

(١٣٩) ابن كثير جـ ١ ص ٣٨٩ الطبقات الكبرى جـ ١ ص ٢٢٥ راجع مسلم كتاب الفضائل جـ ٤ ص ١٨٢٥ راجع فتح البارى جـ ٨ ص ١٦٤ باب مبعث النبي ﷺ ، راجع التاج الجامع للأصول جـ ٣ ص ٢٥٦ المحبر ص ١٠ .

وكان مع ذلك جدياً لا هزل فيه ، وكانت جديته صريحة يعزب معها كل لون من التجاهل أو التناسى أو التعامى أو التغافل أو التثاقل إلى هوى النفس ووسوسة الخناس الذي يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس .

لقد قال لهم الرسول ﷺ فى استفاضة طويلة يحكيها ابن هشام : مابى ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتاباً وأمرنى أن أكون لكم بشيراً فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم (١٤٠) .

وتلا عليهم القرآن الكريم تلاوة مرتلة وحدد لهم أهداف الدعوة :

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۚ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ الْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي

---

(١٤٠) ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٦ / ٢٩٧ المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٥٧ الحلبية جـ ١ ص ٣٤٠ .

مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

(الأنعام ٥٦ / ٥٨)

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

(الأنعام ١٦١ / ١٦٤)

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(الأعراف ٣)

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(يونس ٣)

ولقد نقى هذا الهدف من كل شائبة حتى صار قانوناً سرمدياً إذا حادت عنه الدعوة ضل القائمون عليها طريق الرشاد .

لقد نقى رسول الله ﷺ هدف الدعوة من عرض الحياة الدنيا قل أو عظم :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (١٤١)

(ص ٨٦)

كما نقى أن تتخذ الدعوة مصدرا للإثراء والتجارة .

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(الأنعام ٥٠)

لقد قال لهم فى قوة وصرامة ، ترون هذه الشمس ؟

قالوا : نعـم .

---

(١٤١) راجع تحديد الهدف المرحلة الثانية من هذا الفصل الثانى ، راجع الشفاء شرح على القارى ونسيم الرياض فصل وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول جـ ١ ص ٣٨٥ وما بعدها .

قال : فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة (١٤٢) .

وأما وضوح الدليل فهو قائم على وضوح اللفظ وشمول الدليل على عناصر الإقناع: وهى قبول العقل لها ، إحساس الوجدان بصدقها ، تصويرها لحقائق مسلمة .

واللفظ القرآنى والنبوى قد اشتملا على هذه الركائز .

أما عن اللفظ النبوى فقد أحاطه الله بالعصمة

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ (النجم ٣)

وأما اللفظ القرآنى فقد استفاض القرآن نفسه فى ألفاظه وآياته بذلك :

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢ ﴾

(الأنعام ٩٢)

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾

(هـود ١)

---

(١٤٢) السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٤٦٣ .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(يوسف ١/٢)

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

(النحل ١٠٣)

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ ﴾

(الإسراء ٨٢)

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(الإسـراء ١٠٦)

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ ﴾

(الكهف ١ / ٢)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾

(طـه ١١٣)

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(الأنبياء ٥٠)

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

(المؤمنون ٦٦ / ٧٠)

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ (الشعراء ٢)

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

(الشعراء ١٩٣ / ١٩٩)

﴿ طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ

﴿ ... لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(النمل ١ / ٢)

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(القصص ١ / ٣)

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(العنكبوت ٥١)

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(لقمان ٢ / ٣)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

(السجدة ٢)

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾

(يس ٦٩)

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

(ص ٢٩)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾

(الزمر ١ / ٢)

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

(الزمر ٢٣)

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ (غافر ٢)

﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(فصلت ٢ / ٣)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

(فصلت ٤١/٤٢)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا

ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾

(الشورى ٥٢)

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

(الزخرف ١/٤)

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(الدخان ١/٣)

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(الجاثية ١/ ٢) ، (الاحقاف ١/٢)

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

(الجاثية ٦)

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا

﴿ عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

(الأحقاف ١٢)

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(الأحقاف ٢٩ / ٣٠)

﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ (ق ١)

ولقد شهد القوم بهذا :

لقد قال فيه عتبة بن ربيعة :

قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ولا بالكهانة .

يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيماً (١٤٣) .

وقال فيه الوليد بن المغيرة :

---

(١٤٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤ ، راجع السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٥ ، الشفاء جـ ٢ ص ٥٢٧ .

« والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق ، وإن فرعه لجناة »

« إن عليه لطلاوة وإن له لنورا وإنه يعلو وما يعلى عليه » .

« والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق في أسفله وإنه ليحطم ما تحته وإنه ليعلو وما يعلى عليه »(١٤٤) .

تقول الروايات : إن عقبة بن ربيعة أمسك بفم رسول الله ﷺ وناشده الرحم أن يكف عن القراءة عندما وصل إلى قوله تعالى :

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ (فصلت ١٣)

وقال لقومه : قد علمتم أنه لا يكذب أبدا فخفت نزول العذاب عليكم فأطيعوني واعتزلوه (١٤٥) .

وصدق الله العلى العظيم .

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(الأنعام ٣٣)

---

(١٤٤) الوفاء جـ ١ ص ٢٠٣ ، راجع السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٩٩ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤٤٦ المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٥٠ ، راجع الحلبية جـ ١ ص ٣٣٩ .

(١٤٥) المواهب جـ ١ ص ٢٥٨ ، السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٣ ، الحلبية جـ ١ ص ٣٤٠ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤٥٠ / ٤٥١ .

قال في الشفاء :

فإنهم لا يكذبونك ، لا ينسبونك إلى الكذب ولا يتهمونك به ولا ينكرون أمانتك وديانتك .

قال على كرم الله وجهه : قال أبو جهل للنبى ﷺ : إنا لا نكذبك في الصدق والأمانة ولكن نكذب بما جئت به من القرآن[١٤٦] .

قال ابن كثير في تفسيرها :

لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم[١٤٧] .

وأما شمول الدليل على عناصر الإقناع فقد عرضنا نماذج لها في كتابنا «منهج القرآن في إثبات العقيدة الإسلامية» وشمل

- أدلة التوحيد والتنزيه .
- ووحدانية الصفات .
- ووحدانية التدبير .
- ووحدانية التصرف في الملك .
- كما شملت بعث الوجدان الفطرى لإدراك وحدانية الله جل جلاله .. الخ .

وهى كلها أدلة للخلق والقصد والإبداع والتدبير .

وهى كلها دون تحزلق أو تشدق تشمل كل أنواع الأدلة .

---

(١٤٦) الشفاء جـ ١ ص ١٧٨ / ١٧٩ .

(١٤٧) راجع تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٩ .

العقلية .

والوجدانية .

والفطرية الأولى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

(الأنعام ٩٥ / ١٠٣)

إن هذا السياق يشبه في تدافعه وإيقاعاته على العمل والحس مجرى النهر وهو يتدافع بالأمواج المتلاحقة لا تفر واحدة منها حتى تأتيها لاحقة تدفعها من الخلف وتتشابك معها في مجراها المتصل .

وهى كلها في تدافعها وتشابكها تسمو فوق حد الروعة الباهرة وتأخذ على النفس كل أقطارها وتغلق على النفس كل دروب الهرب وهى تهزها بالروعة الباهرة والحيوية الدافعة وتقول للإنسان : هذا هو ربك الذى خلق فسوى وقدر فهدى فيشاهد السامع كأنما الآى تنبثق عن مدلولاتها فى التماع لآلآء مشرق تجلى للحواس وللقلب في بهاء أخاذ يبلغ آفاق الروعة .

واللفظ القرآني في آيةَ قوى الدلالة على كل ما تزخر به الحقيقة الأصلية في عقيدة الإسلام .

هاهو ذا المرء يقف أمام القوة الخارقة المعجزة التى تقع في كل لحظة من الليل ومن النهار إنها خارقة فى انبثاق الحياة النابضة من هذه المواد الهامدة .

« فالق الحب والنوى » لا ندرى كيف ينبثق ولا ندرى من أين جاءت اللهم إلا أنها من عند الله وانبثقت بقدرته .

وهاهو ذا المرء يقف أمام دورة الفلك العجيب الدائبة

السرمدية الدقيقة فالق الإصباح وجعل الليل سكنا .

ويقف كذلك أمام نشأة الحياة في النبات ويشاهد من التدفق النورانى للآيات مشاهد الأمطار الهاطلة والزروع النامية وأثماره اليانعة وتحشد له الحياة حشدا ليتأمل ويشاهد ليعى الحس المتحفز والقلب المتفتح .

وكأنما الوجود يرى لأول مرة حيا شابا مزهرا معطرا متحركا تدب في أوصاله الحركة تنطق بذاته عن وحدة خالقه دالا بآياته على تفرده جل شأنه بالربوبية والملك والتدبير .

حتى ليبدو للعاقل ـ والسياق يواجه بهذه الآيات جماعة المشركين ـ أن الشرك غريب على الفطرة ، غريب على فطرة الوجود وغريب على فطرة الإنسان فينطق القلب السليم ويشهد الحس الواعى وتنشد العواطف الكريمة إلى تلك الحقيقة

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢﴾ (الأنعام ١٠٢)

ومع هذا فقد قدم القرآن الكريم عرض الدعوة في أسلوب عبقرى التسلسل في مجموعة السور المكية التى سجلت حياة الدعوة الإسلامية في ظلال البيت العتيق .

---

(١٤٨) مع التصرف فى ظلال القرآن جـ ٧ ص ٣٠٨ / ٣١١ راجع حول هذا من حضارة الإسلام جـ ١ ص ١٦ / ١٧ .

ففي سورة الأنعام عالج القرآن قضية العقيدة على أنها القضية الكبرى والقضية الأساسية فهي القاعدة الرئيسية للعبودية الصحيحة لله رب العالمين .

وعالج مع قضية العقيدة قضية الطعام ، فالطعام يغذى القلب بالدم والقلب محل الاعتقاد فإذا ما طهر مما ذبح على الأصنام والأوثان والنصب فقد خلص القلب لنور الحقيقة أما إذا تغذى القلب بلحوم النصب والأصنام فقد قسى وأظلم،وقد سمعت فضيلة مولانا الدكتور عبد الحليم محمود أثناء زيارته للكلية الإسلامية بماليزيا أستاذا زائرا يقول ، إن أكل لحم الخنزيرمفسد للأخلاق يجعل العرض والشرف أمرا هينا .

وتأتى سورة الأعراف : فتعالج موضوع العقيدة بطريق آخر أنها تعرض العقيدة في مجال التاريخ البشرى ، مجال رحلة البشر كلها من آدم وقصته ، مع المدى المتطاول تسير السورة مع موكب الإيمان من لدن آدم إلى سيدنا محمد ﷺ ، تعرض هذا الموكب وهو يحمل « لا إله إلا الله » ويمضى بها على مدار التاريخ مواجها بها البشرية جيلا بعد جيل ، ويرسم سياق.السورة في تتابعه : كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى وكيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته ؟

وكيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله .

وكيف كانت عاقبة المكذبين ، وعاقبة المؤمنين في الدنيا والآخرة[149] ؟

ـ وسورة الفرقان : فيها أدلة الرسالة ودحض لافتراءات الكافرين .

ـ وسورة الشعراء : فيها إثبات للرسالة بطريق آخر ، إنها تثبت الرسالة بالحوار والتسلسل والقرابة .

ـ وسورة النمل : إثبات للوحى كفضل من عند الله يمنحه لمن يشاء كما منح داود وسليمان ملكا ونبوة .

ـ وسورة القصص : تحديد لمدى ما يملكه البشر بالمال والسلطان إن جاءه حق الله وغضبه .

ـ وسورة العنكبوت : تعرض حاصل نتائج الدعوة التى بلغها الأنبياء وعاقبة المكذبين .

ـ وسورة الروم : تدريب للعواطف على تخير صداقة الجانب الإلهى وفيها محاصرة للفرد بعدد من الأدلة على صدق : رسالة سيدنا محمد ﷺ .

ـ وسورة لقمان : رد على المواجهة الثقافية وتعليم للبشر وتحديد لقدراتهم بالنسبة لسلطان الله وجلاله .

ـ وسورة سبأ : حصر الحمد لله وحده ودعوة الكافرين للتفكير المنظم ليصلوا إلى الحق الذى يجحدونه ظلما وعلوا .

---

(١٤٩) فى ظلال القرآن جـ ٨ ص ١٠٤ .

ـــ وسورة فاطر : بيان كامل عن السلطان الإلهى وأن الناس جميعا فقراء إلى الله .

ـــ وسورة يس : مثل عملى للطائعين بالفطرة وإن لم يأتهم دليل ولا أقيمت لهم حجة ومثل كذلك للمعاندين الجاحدين دين الله للهوى والبغى .

ـــ وسورة الصافات : تصفية وجلاء لحقيقة الدين من العبث البشرى .

ـــ وسورة ص : مقارنة بين أحوال المؤمنين الطائعين وأحوال الكافرين الذين ردوا الحق انحرافا وعبثا وغيا .

ـــ وسورة الزمر : تحديد لموقف المسلم وبيان لطبيعة سلوكه ومداه .

ـــ وسورة غافر : النموذج العملى لهذا الموقف الذى حددته من قبل سورة الزمر .

ـــ وسورة الشورى : توضيح لحقيقة الدين ووحدته وهيمنة الرسالة المحمدية على كل ما سبقها من رسالات .

ـــ وسورة الزخرف : بيان لهيمنة الكتاب الكريم الخاتم على كل الكتب السماوية الأولى ومعالجة لعديد من قضايا التدين التى ابتدعها البشر انحرافا وجذافا .

ـــ وسورة الدخان : قرع للمشاعر وهز عنيف للقلوب ، وجذب للبشر من نواصيهم ليدخلوا في دين الله الحنيف .

ـــ وسورة الجاثية : هجوم على القلب ، وضرب فى الأحاسيس

والمشاعر ليستيقظ ضمير الإنسان وتسلم فطرته حتى يعود إلى رحاب ربه حيث الأمان والراحة .

ـ سورة الأحقاف : تقريع وتأنيب للمعاندين المتجافين مع الفطرة والطبع المتزن الذى أحست به الجن فأسلموا لما سمعوا كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم دون أن يطالبوا النبى ﷺ بدليل أو برهان .

لقد فهمت الجن معانى القرآن فآمنوا ورجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الايمان .

﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

(الأحقاف ٣١ / ٣٢)

لقد عرضت الدعوة الإسلامية عرضا واضحا تفردت به على طول الزمن .

لقد فهمها الجن قبل البشر ولسانها هو لسان القرآن ، عربى مبين .

ولقد أحاط اللفظ القرآنى بجميع جلال المعانى في جاذبية انسيابية حلوة تستجيب لها العاطفة النيرة ، وينشد إليها القلب الصادق . ويتلذذ بحلاوتها الوجدان السليم .

لقد عرض اللفظ القرآنى الدعوة لكل أجزاء الموضوع

متخذا كل زاوية من زوايا الفكر والوجدان والتاريخ في جملة ما ساقه حتى لا تكون للناس حجة بعد هذا التوضيح الواضح .

وليس هناك أدنى شك في أن عرض الدعوة الإسلامية امتاز وحده بالوضوح الدائم على طول الزمن الممتد ، وأن غيرها من الدعوات لم ينل هذا الحظ لعجز البشر عن توضيح هدفه وفساد صنعة التعبير التى تصدر عن الإنسان فشتان ما بين وحى معصوم هو كلام الله المجيد ، وإنشاء مرذول هو كلام البشر الوضيع .

فهل يقدر العاملون في الدعوة أن يعرضوا قضايا الدعوة بمثل هذا الوضوح والبرهنة بعيدا عن الإثارة والشغب وأساليب الوجاهة التى لا تبغى إلا الشهرة والعصبية والاتجار .. ؟

سادسا ـ إيجاد استقطاب حول الدعوة :

من عوامل منهج التغيير الاجتماعى إيجاد استقطاب حول الدعوة أو المبادىء .

والدراسات الاجتماعية تركز اهتماما بالغا في منهج العمل مع الجماعة على حدوث تغيير في البيئة ينشد به الناس حول المبادىء المرغوب في تنفيذها كعنصر أساسى من عناصر النجاح المطلوب .

والاستقطاب أنواع فقد يكون جزئيا وقد يكون كليا حسب قيمة الداعية وثقله الاجتماعي والفكرى ، والأخلاقى .

ولا تعرف الحياة الإنسانية والفكرية على السواء داعية قط أحدث استقطابا كاملا حوله وحول دعوته غير سيدنا محمد ﷺ ، فلقد أنشأ نحوه ونحو دعوته أجيالا من العلماء والمفكرين منذ نشأ في جوار البيت العتيق حتى أذن له بالجوار في الرفيق الأعلى .

لقد استقطب محمد ﷺ حوله الفكر الإنسانى كله سواء المسلمون الصادقون أو المسلمون المتهوكون أو الكافرون المنصفون أو الكافرون المتعصبون .

لقد ألف في سيرته ومبادئه خلق كثير .

لقد ألف فيه كاتبو اللسان العربى .

وألف فيه كاتبو اللسان الإنجليزي .

وألف فيه كاتبو اللسان الفرنسى .

وألف فيه كاتبو اللسان الأندونيسى .

وألف فيه كاتبو اللسان الماليزي .

وألف فيه كاتبو اللسان الفارسى .

وألف فيه كاتبو اللسان الصينى واليابانى ... الخ .

ولقد بلغت هذه المؤلفات في كل لغة حدود المئات حتى صار في كل مكتبة ومعهد وجامعة ودولة وجنس ولغة كتاب عن الإسلام وعن نبيه الكريم .

فصار أمر الإسلام واضحا كل الوضوح ليس فيه سر مكتوم ولا أحاجى يغمض تفسيرها ففي أيدى الناس على اختلاف ألسنتهم وجنسياتهم:تاريخه ودعوته ومبادئه وسلوكه ومنهاجه ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كل صغيرة وكبيرة منذ ولادته ورضاعه وشبابه حتى بعثته .

وأن قبره المعطر الكريم لأثبت في سنده التاريخي من كل تواريخ العظماء وجميع أصحاب الدعوات .

فماذا يعرفه الناس عن زرادشت وكونفشيوس ؟

وماذا يعرفه التاريخ عن سولون وسقراط ؟

وماذا يعرفه التاريخ عن موسى وعيسى عليهما السلام ؟

أما قبر محمد ﷺ فهو منزله الذى كان يعيش فيه وتلقى فيه الوحى وخرج منه للجهاد الخالص في سبيل الله وهو المشكاة التى شع نورها على الدنيا كلها .

ولا يزال المسلمون ينشدون إلى الروضة الشريفة وهم على ثقة أن هنا كان يجلس النبى ﷺ وكان يستقبل الوفود ، ويدرب الجيش على السلاح ويلقى مواعظه وتوجيهاته فتنشد قلوبهم الطيبة مع الذكريات العظيمة وهم يؤمنون أن كان النبى محمد ﷺ معلم البشر أجمعين(١٥٠) .

---

(١٥٠) راجع حول هذه المعانى : الرسالة المحمدية للأستاذ سليمان الندوى ص ٥٩ / ٦٣ .

ومنذ القدم والرسول ﷺ قد رسم للعمل مع الجماعة منهج الاستقطاب كعامل مثير مغير للبيئة إلى الاتجاه الأفضل المرغوب فيه .

لقد قلقلت الدعوة الإسلامية كل الثقافات الموروثة في البيئة العربية لتحل محلها تصورا جديدا فى العقيدة والأخلاق والمعاملات .. وقد أنشد المجتمع تلقائيا إلى هذا الاستقطاب الذى أحاط بالمنطقة كلها منذ فجر الإرهاصات بالنبوة .

يروى ابن هشام : أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم : يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا .

قالوا : فأنت ياأبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به قال : بل أنتم فقولوا أسمع ؟ قالوا : نقول كاهن ؟ قال : لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ، قالوا : نقول : مجنون ؟؟ قال : ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته قالوا : فنقول شاعر ؟ قال : ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر ، قالوا : نقول : ساحر ؟ قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا : فما

نقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة وماأنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وأن القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجه وبين المرء وعشيرته فتفرقوا على ذلك[١٥١] .

إن معنى هذا أن النبى ﷺ أحدث استقطابا حول الدعوة وصل إلى أطراف البيئة إذ خشيت جماعة الكافرين في مكة من انجذاب الحجاج القادمين من الخارج الذين سمعوا عن الإسلام ، إلى الدخول فيه فألهب ذلك قلوب قريش خوفا وهلعا وحيرهم في التعرف على رأي يتفقون عليه ليكون وسيلة إعلام مضادة يشككون بها في دعوة الإسلام .

وما تحير الوليد بن المغيرة على علو منزلته وشرفه في القوم إلا لمعرفته بالحق الذى جاء به محمد ﷺ ولكنه العمى الذى يختم به الشيطان على القلوب والصدور ومع أنه قد نفى السحر أولا لكنه لم يجد له مخرجا من استخدامه إنكارا وتعنتا ضد الدعوة الإسلامية .

ومع هذا فإن الأحداث التى وقعت فيما بعد تبرهن على فشل المواجهة التى شنها الكافرون وأن الاستقطاب الذى أحدثته الدعوة الإسلامية حول مبادئها قد أثمر .

---

(١٥١) ابن هشام جـ ١ ص ٢٧٠ / ٢٧١ دلائل النبوة جـ ١ ص ٤٤٧ / ٤٤٨ الوفا جـ ١ ص ٣٠٢ / ٣٠٣ .

ففي الخصائص الكبرى : أن الطفيل بن عمرو الدوسى يحدث : أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا فقالوا له : أنت قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا فرق جماعتنا وشتت أمرنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وأبيه وبين الرجل وأخيه ، وبين الرجل وزوجه وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما دخل علينا فلا تكلمه ولا تسمعن منه ..

قال فو الله مازالوا بى حتى أجمعت على أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه حتى حشوت في أذنى حين غدوت إلى المسجد كرسفا فرقا من أن يبلغنى شيء من قوله : فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريبا منه فأبى الله إلا أن يسمعنى، بعض قوله فسمعت كلاما حسنا فقلت في نفسى : إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول .

فإن كان الذى يأتى به حسنا قبلت وإن كان قبيحا تركت فمكثت حتى انصرف إلى بيته فتبعته فقلت : إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا فأعرض على أمرك فعرض على الإسلام وتلا القرآن فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرا أعدل منه فأسلمت(١٥٢) .

---

(١٥٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٣٦ ، الحلبية جـ ١ ص ٤٠٣ ، الوفا جـ ١ ص ٢٠٤ / ٢٠٥ السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٧٢ / ٧٣ .

لقد اختار القوم كلمة السحر كدعاية مشوهة ولكن الاستقطاب الذي نشرته الدعوة كان له جاذبية أقوى فأنشد الطفيل رغم ما قالوه عنده وانجذب إلى معرفة الحق الذى جاء به سيدنا محمد ﷺ فلما سمع وهو رجل لبيب شاعر لا يغيب عنه تمييز الحق من الباطل أسلم وكان إسلامه خيرا عميما على الإسلام .

والنضر بن الحارث اللبيب المتفيهق وهو من أشد الأعداء للإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام تزلزله جاذبية الاستقطاب فيقول في حيرة وغيظ وكمد :

يامعشر قريش أنه والله قد نزل لكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، فقد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم في صدغيه **الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحرا ، لا والله ما هو بساحر لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهنا لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ، وقلتم شاعرا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه ، وقلتم مجنونا لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بحنقه ولا وسوسته**

ولا تخليطه يامعشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم(١٥٣) .

هكذا كان عمق الاستقطاب فى النفوس تصديقاً وجدانياً داخلياً متفقاً عليه من جميع الكافرين .

إنه ليس مجنوناً ولا كاهناً ولا شاعراً ولا ساحراً ... ولكنهم مع هذا الانجذاب الوجدانى يكابرون ويجادلون بالباطل ... وكانت القافلة تسير غير آبهة بمعوق .

قدم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة وكان يرقى من الرياح فسمع سفهاء الناس يقولون إن محمداً مجنون ، فقال : آتى هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدى قال فلقيت محمداً فقلت : إنى أرقى من هذه الرياح وأن الله يشفى على يدى من يشاء فهلم ؟ فقال رسول الله ﷺ « إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونؤمن به ونتوكل عليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلله فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ..

فقال ضماد : أعدهن على ؟ فأعادهن فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة وقول الشرك فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات

---

(١٥٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٩ / ٣٠٠ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤٤٨ / ٤٤٩ الشفاء جـ ٢ ص ١١٠ / ١١١ .

ولقد بلغن قاموس البحر فهلم يدك أبايعك على الإسلام فبايعه (١٥٤) .

لقد فشلت أسلحة الدعاية وخابت مساعى المتهوكين ومازالت القافلة تسير غير آبهة بمعوق .

ففى السيرة لابن هشام . أن عشرين رجلاً أو قريبا من ذلك من النصارى قدموا على رسول الله ﷺ وهو بمكة حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة .

فلما فرغوا من مساءلة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ؟ ما نعلم ركبا أحمق منكم أو كما قالوا لهم ؟ فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم (١٥٥) .

---

(١٥٤) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٣٣٤ ، حياة الصحابة جـ ١ ص ٥٣ ، الوفا جـ ١ ص ٢٠٠ السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٥٣ ، الحلبية جـ ١ ص ٣٨٤ ، السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٤٠ دلائل النبوة للبيهقى جـ ٢ ص ١٠ / ١١ .

(١٥٥) ابن هشام جـ ١ ص ٣٩١ / ٣٩٢ الحلبية جـ ١ ص ٣٨٤ السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٤٠ .

لقد خرج أبو جهل وجماعته على حدود الأدب فى مجابهة هذا الوفد الكريم الذى جاء مستجيباً لنداء الله وانجذب بالروحانية التى استقطب بها نبي الدعوة سيدنا محمد ﷺ بيئات الدعوة فى مكة وخارجها .

ولئن كانت أطراف الجزيرة من بعيد قد أنشدت فى وثاق حبيل إلى الدعوة فإن القوم فى داخل مكة قد أنشدوا إليها كذلك غير أنهم يحملون صدوراً صدئة وقلوباً مظلمة وعقولاً متحجرة وآذاناً صماء وعيوناً عمياء ، وأفئدة خاوية .

فقد روى ابن هشام :

* « أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس ابن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا واستمعوا له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا

فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناهاولا ما يراد بها ، قال الأخنس: وأنا والذى حلفت به كذلك .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه، قال : فقام عنه الأخنس وتركه (١٥٦) .

ينطق النص بمقدار العمق الذى أحدثه الاستقطاب حول الدعوة الإسلامية حتى أنشد إليها ثلاثة من كبار القوم ومن فحول الكفر دون إرادة ولا وعى ودون موعد ولا اتفاق فلما

---

(١٥٦) ابن هشام جـ ١ ص ٣١٥ / ٣١٩ ، الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٥ / ٢٨٦ السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٦ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ ١ ص ٤٥٢٤ / ٥٣ .

كشفهم الصباح مرات ثلاث تعاهدوا وحلفوا على الكفر والضلالة .

ومفهوم هذا النص أنه ليس فى الوجود الفكرى والإصلاح الاجتماعى رجل قط مثل محمد ﷺ استطاع أن يحدث استقطاباً لا شعورياً حول الدعوة والداعية إلى درجة شد الخصوم من عناقيد أفكارهم بالليل ليبيتوا ثلاث ليال سوياً يستمعون فيها القرآن حتى أحسوا بلذة روحانية ملكت عليهم مشاعرهم فعاودوا الكرة مرات ثلاث حتى عاودهم ماران على قلوبهم من قبل فأغمضوا أعينهم عن نور الحقيقة وأغلقوا قلوبهم عن دخول الإيمان .

ولقد أكسبت هذه المعارضة الدعوة الإسلامية انتشاراً فى البلاد والقبائل التى كانت تفد للحج .

يقول ابن هشام :

فتفرقوا .... فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا له أمره . وجعلوا يقولون ذلك فى رسول الله ﷺ لمن لقوا من الناس وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ فانتشر ذكره فى بلاد العرب كلها (١٥٧) .

وفى الخصائص عن مسلم عن أبى ذر قال : انطلق أخى

---

(١٥٧) بتصرف ابن هشام جـ ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

أنيس إلى مكة ثم أتانى فقال : لقيت رجلاً بمكة يزعم أن الله أرسله ، قلت ما يقول الناس ؟ قال : يقولون : إنه لشاعر وساحر وكاهن ، وكان أنيس أحد الشعراء فقال : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وصفت قوله على إقراء الشعراء فو الله ما يلتئم على لسان أحد بعدى إنه شعر والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون [١٥٨] .

فساعدت قريش بهذه المعارضة على توسيع رقعة الاستقطاب ، والناس فطرياً مجبولون على حب الاستطلاع ، وكل قاطن في بيته بعيد عن الجاذبية القرشية فهو طليق التفكير من ضغط العادات وجاذبية التقاليد فسوف يفكر بأسلوب سليم نقى من غوغائية الجهالة الجاهلة التى يعيش فيها أبو جهل والوليد وعتبة والنضر وأبو سفيان والأخنس بن شريق .

لقد آمن ضماد من أزد شنوءة ومثيله فى الصحة النفسية والسلامة العقلية الطفيل بن عمرو من أول مرة يستمعون فيها إلى آى الذكر الحكيم وقد جاءوا من بعيد كما آمن معهم وفد نجران الذى قال لأبى جهل وهو يسفه عليهم ، سلام عليكم لا نجاهلكم .

ولم يؤمن النضر بن الحارث ولا أبو جهل ولا الوليد وقد

---

(١٥٨) الخصائص جـ ١ ص ١٨٧ ، وراجع الشفاء جـ ٢ ص ٤٩٨ راجع مسلم جـ ٤ ص ١٩٢٠ تخريج المرحوم الأستاذ عبد الباقى .

اتفقوا على أن الذى يقوله محمد ليس مثل كلام البشر وأنه لا يكذب قط أبداً ... فقد حاولوا أن يخلعوا أنفسهم من استقطاب الإيمان الذى حاصرهم وجدانياً فأغلقوا دونه القلوب والإسماع ، ولكنهم فتحوا بهذا الموقف العنيد آفاقاً فسيحة ونشروا بهذا الجحود والمكابرة والمواجهة استقطاباً شاملاً فى أنحاء البيئة من قريب ومن بعيد .

يقول ابن هشام :

فلما انتشر أمر رسول الله ﷺ فى العرب وبلغ البلدان ذكره بالمدينة ولم يكن حى من العرب أعلم بأمر رسول الله ﷺ حين ذكر وقبل أن يذكر من هذا الحى من الأوس والخزرج وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار اليهود وكانوا حلفاءهم ومعهم فى بلادهم ، فلما وقع ذكره بالمدينة تحدثوا بما بين قريش فيه من الاختلاف .

قال أبو قيس بن الأسلت أخو بنى واقف ـ وكان يحب قريشاً ـ قصيدة يعظم فيها الحرمة وينهى قريشا فيها عن الحرب ويذكر فضلهم وأخلاقهم ويأمرهم بالكف عن رسول الله ﷺ ويذكرهم ببلاء الله عندهم ودفعه عنهم الفيل وكيده عنهم (١٥٩) .

هكذا أثار الرسول الكريم ﷺ بيئة الدعوة باستقطاب شامل كامل ساعدت فى اتساع رقعته الجبهة المعارضة « ولله

---

(١٥٩) بتصرف ابن هشام جـ ١ ص ٢٨٢ / ٢٨٣ .

جنود السموات والأرض » وتلك واحدة من امتيازات الدعوة الإسلامية يوم أن تكون خالصة لوجه الله يأتيها نصره من حيث لا يعلم الدعاة .

وما أحوج الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث إلى هذا المستوى من العمل ينجذب إليها الناس كافة إذ يسمعون عنها سلوكاً مطبقا ووجوداً عيانا فيه الخلاص والطمأنينة والأنس والسعادة تعلو فيه أسماء الله الحسنى وتخضع فيه النفوس كلها لجلال الله العظيم .

سابعاً : السلوك المطابق للمبادىء

أفرغت يا أبا الوليد ؟

بهذا الأدب الجم واستعمال الكنية في مخاطبة عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، وبنداء رخى هادىء يتحدث الرسول ﷺ إلى عتبة مجيباً عليه بعد أن تحدث طويلاً وأفرط في الحديث وذكر كلاماً يثير الحليم ويهيج العفيف ويغضب الحر ... لقد تحدث عتبة بكلام بذىء غير موقر لقد عرض فيما عرض على النبي ﷺ .

« أيها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا وأخذا . وإن كان إنما بك من الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا » (١٦٠) .

هذا عرض رجل جاهل لا يعرف أقدار الناس ولا منازل الرجل فقد عرفت قريش محمداً ﷺ في شبابه أعف الرجال نفساً وأطهرهم قلباً وأتقاهم خاطراً وما هفا هفوة صغيرة فقد عصمه الله وكان هو الأمين وحده دون سائر شباب قريش وشيوخها أجمعين .

---

(١٦٠) الروض الأنف جـ ٣ ص ١٤٩ ، الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٣ الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٢٠٢ .

لقد كان أرضاهم وهو صغير فماذا حدث لعقولهم بعد أن جاءهم ، لقد أبرز النبي ﷺ مبادىء الدعوة فى رده : أفرغت يا أبا الوليد فى هدوء هادىء واتزان رزين وصفح كريم وعفو صادق .

يقولها رسول الله ﷺ معلناً بها أن مبدأ العمل مع الجماعة فى نظر الدعوة هى مطابقة سلوك الداعية إلى المبادىء الإسلامية .. فتلا عليه القرآن حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة بفم رسول الله ﷺ خوفاً من نزولها فإنه يعلم أن محمداً لصادق وأنه ما كذب أبدا فبات ذلك فى التاريخ شهادة عليه وأنه ساعة أن عرض ما عرضه على النبي ﷺ كان غير كريم السجية ، وغير صادق من مسعاه ... وإن رد النبي ﷺ بات في سجلات التاريخ وشهادة رائعة الدلالة على أن الإسلام ما يرجو للبشرية إلا خيراً يحقق لها السعادة والأمن والتكريم (١٦١) .

* ولم يكن ذلك الحلم مرة واحدة لقد كان منهجاً فى أسلوب العمل للدعوة ، لقد ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف يدعوهم إلى عبادة الله وحده وهى دعوة صريحة فى احترام الإنسان

---

(١٦١) راجع القصة فى : السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٢٩٥ السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٥٠٤ / ٥٠٥ ، المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٥٦ السيرة الحلبية جـ ١ ص ٢٣٩ الوفاء جـ ١ ص ٢٠١ .. الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٣ / ٢٨٤ .

نفسه وتوقيره لذاته أن يتوجه بالعبادة إلى الله الحق الذى يملك السموات والأرض وأن يترفع الإنسان عن الانحطاط الذى يزاوله بالسجود إلى حجر أو خشب صنعه بيده ، ثم هو لا يملك لنفسه قطميراً من خير أو شر ، وهى دعوة تتفق مع العقل العادى الذى يفكر تفكيراً عادياً مستقيماً ، وكذلك هى دعوة إلى الحق فيما كان عليه الأباء الأطهار سالفا قبل الانحراف الذى جره عمرو بن لحى [١٦٢] ولكن القوم آذوا رسول الله ﷺ بصورة شنيعة قاسية لا تتفق مع الواجبات الأخلاقية لضيف أو قريب أو عابر سبيل .

لقد سلطوا عليه سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به ويرضخونه بالحجارة حتى أدموا رجليه وهم يضحكون .

السلوك العادى هنا أن تتفجر النفس غيظاً وحنقاً وأن يود الإنسان أن لو كان معه قوة السماء والأرض ينتصر لنفسه من هذه الأهزوءة التى فعلها قوم ثقيف ، وتأتى قوة السماء .. بجنودها تستأذن رسول الله ﷺ فى أن تطبق الأخشبين على قوم ثقيف وهذه القوة إذ تأتى فى لحظة حرارة النفس والموقف مازال ملتهباً ، تأتى وهى تقص عليه الوقائع التى حدثت كأنما تعلل مجيئها بإقامة العدل .

---

(١٦٢) الحلبية جـ ١ ص ١١ راجع كذلك كتابنا : آلهة فى الأسواق .

إن الله قد سمع قول قومك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

ويقول ملك الجبال للنبى ﷺ :

أنا ملك الجبال وقد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت ، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (١٦٣) ..

ولكن الإسلام دعوة لصلاح الناس، والنبي ﷺ رحمة للعالمين فهل تبقى المبادىء الإسلامية نظرية فقط ؟ هنا يأتى دور التطبيق فيقول النبي ﷺ :

بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً (١٦٤) ويصفح رسول الله ﷺ الصفح الجميل ويدعو دعاء نديا رخياً أخاذاً بالنفس والمشاعر والوجدان يعلم الداعية فى كل زمن كيف يكظم غيظه ، ويعفو عن قومه ويدعو ربه :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟

---

(١٦٣) هما جبلان : تارة يضافان لمكة وتارة يضافان لمنى فقال : اخشبا مكة واخشبا منى وهما أبو قبيس وقعيقعان « بالتصغير » ويسميان أيضاً الجبجبان راجع الشفاء شرح نسيم الرياض جـ ٢ ص ٨٢ .

(١٦٤) الشفاء جـ ٢ ص ٨٢ ، الدرر ص ٦٧ / ٦٨ والحلبية جـ ١ ص ٣٩٥ / ٣٩٦ السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ١٥٢ ، المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٩٨ ، الخصائص جـ ١ ص ٤٥٢ مسلم جـ ٣ ص ١٤٢١ / ١٤٥٠ .

إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » (١٦٥) .

وحق لملك الجبال أن يقول للنبي ﷺ : أنت كما سماك ربك رءوف رحيم (١٦٦) .

وصدق صاحب الهمزية :

جهلت قومه عليه فأغضى فهو بحر لم تعيه الأعياء
وسع العالمين علما وحلما وأخو الحلم دابه الإغضاء

* ولم يكن ذلك فى مكة فقط .

بل إن هذا المنهج استمر مع الدعوة فى كل ظروفها يخلصها لله ويجعل كل حركة فيها ابتغاء وجه الله ويبرهن فى كل مصيبة يأتى بها الأعداء ، أن الدعوة ما تقصد إلا تكريمهم وتوقيرهم وإعزازهم واحترامهم ، ففى الشفاء :

روى أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا : لو دعوت الله عليهم ؟

فقال عليه الصلاة والسلام :

---

(١٦٥) السيرة لابن هشام جـ١, ص ٤٢٠ ، تاريخ الطبرى جـ ٢ ص ٣٤٥ .
(١٦٦) الحلبية جـ ١ ص ٣٩٦ .

إنى لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعياً ورحمة : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون [١٦٧]

إنهم حقاً لا يعلمون طريق الحق فمازالوا فى غواية النفس ، ولا يعرفون قدر النبي ﷺ فمازالوا فى حجاب من الجاهلية الأولى ولا يعرفون حقيقة الإسلام فقد طمسوا قلوبهم بثقافة الأجداد ، وجعلوا على سمعهم ختما وران على قلوبهم ما كان به يأفكون .

* لقد كان السلوك المطابق هو نهج العمل مع الجماعة الذى كان يوصى به رسول الله ﷺ القيادة التى تعمل معه فى حقل الدعوة الإسلامية .

لما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام أبطأوا عليه فأنف الطفيل منهم الإبطاء فهو رجل وجيه فى قومه وأنه للبيب ذكى مشهور بالألمعية والفطنة والرجاحة وما كان يظن أن قومه لا يلبثون مليا إذا دعاهم إلى الإسلام حتى يجيبوا داعى الله ... فلما أبطأوا عليه جاء إلى رسول الله ﷺ بمكة فقال له : يا رسول الله إنه قد غلب على دوس الزنا فادع الله عليهم ؟

لقد ضاقت نفس الداعية ونفد صبره وكره من قومه الاستمرار فى الضلالة والانحراف ولكنه هو ذاتياً واثق من

---

(١٦٧) الشفاء جـ ٢ ص ١٤ .

دعوته ومبادئه فاستعان برسول الله ﷺ أن يدعو الله عليهم ليهلكهم .

ولكنه منطق لا يتفق مع عالمية الإسلام واستمراره إلى يوم القيامة فليس من بعد الإسلام دين آخر حتى يهلك هؤلاء ثم يأتى قوم آخرون ولهم نبى آخر كما فعل بأشياع الكافرين فى الغابر ، إنه دين خاتم ورسالة سرمدية إلى يوم القيامة ومنهج يربى ويسوس ويبنى لخير الإنسانية كلها .

ولهذا قال النبي ﷺ ..

« اللهم اهد دوسا » .

ثم قال للطفيل :

« ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم » (٦٨) .

لقد كان الخلق الفاضل والمؤانسة والوداد والصفح هى أسلوب العمل مع معاندى الدعوة حتى تبرز معالم الإسلام وحقائقه وأفضاله ولهذا كان الرسول ﷺ دائماً ودوداً ، رءوفاً ، صفوحاً وكان لا ينادى الواحد من أعداء الدعوة إلا بالكنية المؤدبة والاسم اللطيف .

ففى الخصائص الكبرى ، عن المغيرة بن شعبة قال : إن أول يوم عرفنا رسول الله ﷺ أنى أمشى أنا وأبو جهل بن هشام فى بعض أزقة مكة إذ لقينا رسول الله ﷺ فقال رسول

---

(١٦٨) السيرة لابن كثير جـ ٢ ص ٧٤ ، الحلبية جـ ١ ص ٤٠٣ / ٤٠٤ ، الروض الأنف جـ ٣ ص ٣٧٨ ، الروض الانف جـ ٣ ص ٣١٧ ، الوفا جـ ١ ص ٢٠٦ .

الله ﷺ لأبى جهل يا أبا الحكم : هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله .

إن سلطة محمد فى قومه معروفة ومكانته مشهورة ومركزه وحده فريد فى القوم وأبو جهل واحد من كبار أعداء الله ورسالته ولكن أسلوب التعامل هنا هو أن يظهر الداعية أخلاقيات الدعوة عملياً فيناديه الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يا أبا الحكم (١٦٩) إن اسمه المشهور به : عمرو بن هشام بن المغيرة ابن أخ الوليد بن المغيرة(١٧٠) من أسرة تعادى الله ورسوله وجماعة المسلمين ولكن الداعية الأول ﷺ يبسط إليه القول في لين وسماحة ومودة كسلوك عملى لمحاسن الإسلام ، وتطبيق وجودى لأخلاقياته حتى يظهر للخصم أن المعركة ليست أنانية وإنما هى لخير الخصم نفسه أن يتوب إلى الله الذى خلقه وأنعم عليه بعديد الآلاء .

ولذا فما كانت تحمل نفس رسول الله ﷺ ألما لواحد من المجابهين للدعوة العتاة القساة فى تصرفاتهم نحو المسلمين الأول فلقد كان يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحد الرجلين اللذين أطنبا فى السخرية بالإسلام والمسلمين ، ففى الدلائل للبيهقى :

---

(١٦٩) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٦ .

اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك[171] .

قال فى الخصائص رواية عن الطبرانى : عن أنس أن رسول الله ﷺ دعا عشية الخميس فقال :

اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام ، فأصبح عمر يوم الجمعة فأسلم[172] .

ولقد كان عقبة بن أبى معيط من كبار المستهزئين بالإسلام وبالمسلمين وكان كثير الأذى لرسول الله ﷺ قال فيه ﷺ : كنت بين شر جارين أبى لهب وعقبة بن أبى معيط أن كانا ليأتيان بالروث فيطرحانها على بابى .

ومع هذا فإن صاحب الحلبية يروى أن رسول الله ﷺ كان يكثر من مجالسة عقبة بن أبى معيط[173] ، ويدعوه إلى الإسلام ..

« لقد كان رسول الله ﷺ على المستوى الرفيع في تحمل أعباء الرسالة وكان عمله الكريم نبراساً لمنهج العمل مع الجماعة فى المستقبل وقد أثبت القرآن الكريم ذلك » يقول الله تعالى :

---

(١٧٠) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٢٨٠ تعليق .

(١٧١) الدلائل للبيهقى جـ ٢ ص ٣ ، راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٣ ص ٢٦٧ .

(١٧٢) الخصائص الكبرى جـ ١ ص ٣ ، ٣٣ راجع الحلبية جـ ١ ص ٢٦٧ ، المواهب جـ ١ ص ٢٧٢ .

(١٧٣) الحلبية جـ ١ ص ٣٥٣ .

﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾ (١٧٤)

(هــود ١١٢)

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

(الأعراف ١٩٩)

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

(الشــورى ١٥)

ولقد وصفه الله جل شأنه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم ٤)

قال ابن كثير فى تفسيرها : عن قتادة : سئلت عائشة عن

---

(١٧٤) من العيوب التى لحقت ببعض الذين امتحنوا فى سبيل الدعوة أنهم لا شعورياً يتصرفون بأسلوب الذين ظلموهم انتقاماً من شيء كانوا يرهبونه فلم يحسنوا بذلك لسمعة الدعوة وبعضهم تحول إلى مقامر بالدعوة فنظم لنفسه « شلة » ضد إخوانه ، وضد المجتمع الذي يعيش فيه فخرج عن المبدأ أصلح نفسك وادع غيرك .

خلق رسول الله ﷺ قالت : كان خلقه القرآن [175].

يقول شيخنا العارف بالله فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود : وحقيقة الأمر أن رسول الله كان فى كل ما يدعه قرآنا مطبقاً ، ومن ذلك كان قوله سبحانه وتعالى في بيان ذلك فى شأنه ﷺ

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ (يونس ١٥)

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم ٤)

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(الجاثية ١٨)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(الرعد ٣٧)

كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس ، أتى إليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم فوضعها ، ـ كما يروى

---

(١٧٥) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٢ ، راجع الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ١ ص ٣٦٤ .

هارون بن رباب ـ على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .

لقد كان رسول الله ﷺ مثالاً وأسوة لتطبيق مبادىء الدعوة سلوكياً حتى كانت حقيقة نفسه الشريفة من حقيقة الرسالة وكانت عظمة نفسه الزكية من عظمة هذه الرسالة .

إن الحقيقة المحمدية كالحقيقة الإسلامية أبعد من كل مدى يملكه مجهر مكبر بشرى وقصارى ما يملكه راصد لعظمة محمد ﷺ التى يراها ولا يقدر على حدودها أنه كان لهذه الرسالة نبياً فلولاه ما كنت لغيره ولو كانت ما كانت إلا له .

إن محمداً ﷺ وحده هو الذى يرقى إلى هذا الأفق من العظمة ، إنه وحده هو الذى يبلغ قمة الكمال الإنسانى المجانس لنفحة الله فى كيانه هو ، هو الذى أعد خاصة لهذه الرسالة الكونية العالمية حتى لتتمثل فى شخصيته الحية إنه وحده أهل لهذا المقام الرفيع ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ ولهذه فقد كان خلقه القرآن ، وكان وصفه العظيم ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (ن ـ ٤) وليس غير محمد ﷺ يطيق هذا الثناء من جلال الله وهو ثابت لا ينسحق تحت ضغطها الهائل ولا تأرجحت شخصيته تحت وقعها الجليل ، لقد كان هو ذاتيا دليلاً على عظمة شخصيته فوق كل دليل وتلك هى السوية البشرية للأنبياء وكان هو وحده الأسوة الحسنة التى يتأسى بها الدعاة فى كل عصر وحين .

ولقد شهد العصر الحديث بهذه الأسوة وتطبيق مبادىء الدعوة رجل من الأذكياء المنصفين من متمذهبي البراهمة سئل : بماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فأجاب : لأنى أجد فى رسول الإسلام خلالاً مختلفة وأخلاقاً جمة وخصالاً كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم لإنسان واحد فى آن واحد ، فقد كان ملكاً دانت له أوطانه كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء ، وهو مع ذلك متواضع فى نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئاً وأن الأمر كله بيد ربه .

وتراه فى غنى عظيم تأتيه الإبل موقورة بالخزائن إلى عاصمته ويبقى مع ذلك محتاجاً ولا توقد فى بيته نار لطعام الأيام الطوال وكثيراً ما يطوى على الجوع .

ونراه قائداً عظيماً يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهم ألوفا من الجند المدجج بالأسلحة الكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة وتجده محباً للسلام مؤثراً للصلح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجأش هادىء ومعه ألوف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه .

ونشاهده بطلاً شجاعاً يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رءوف متعفف عن سفك قطرة دم .

وتراه مشغولاً بجزيرة العرب كلها بينما هو لا يفوته أمر

من أمور بيته وأزواجه وأولاده ومن أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ويهتم بأمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل إلى الله منقطع عن الدنيا فهو فى الدنيا وليس فيها لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله [(١٧٦)]

ـ لقد كان رسول الله ﷺ أسبق الناس إلى عمل ما يأمر به ، يقول الشيخ الندوى :

ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أوحى إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به[(١٧٧)] .

ولقد حدد بذلك رسول الله ﷺ قاعدة من قواعد منهج العمل مع الجماعة وهى اتحاد السلوك مع المبادىء التى يدعو إليها ... ولهذا استحق هذا المنهج صبراً طويلاً على مشقة التبليغ وعداوة المكابرين ، فياويل المعاصرين من الدعاة الذين لم يوفقوا لهذا التأسى .

---

(١٧٦) الرسالة المحمدية ص ٨٧ .

(١٧٧) الرسالة المحمدية ص ١٠٨ .

ثامنـــاً : الصبر وتحمل المشاق

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(يونس : ١٠٩)

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(هـود : ٤٩)

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(هـود : ١١٥)

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(النحل : ١٢٧)

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ ﴾

(الكهف : ٢٨)

﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ ﴾ (مريم : ٦٥)

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(طه : ١٣٠)

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(الروم : ٦٠)

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾

(ص : ١٧)

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾

(غافر : ٥٥)

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

(غافر : ٧٧)

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾

(الأحقاف : ٣٥)

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ

﴿ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

(ق : ٣٩)

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

(الطور : ٤٨)

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

(القلم : ٤٨)

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ (المعارج : ٥)

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾

(المزمل : ١٠)

﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ ﴾ (المدثر : ٧)

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ ﴾

(الإنسان : ٢٤)

من أساسيات العمل مع الجماعة أن تبرز الأهداف التى يدعى إليها فى جو طبيعي بعد أن يتحلى بها الدعاة سلوكاً عملياً .

وقد التزمت القيادة فى ظلال العمل المكى بالسلوك المطابق

للمبادىء الإسلامية تنقية للدعوة فى صورتها العملية من أدنى شائبة تحسب ذلك لأن الفرد المسلم هو مرآة الإسلام .

ولهذا فإن الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى قد تجنبت صداماً مسلحاً حتى تعطى فرصة كاملة لإبراز معالم الدعوة وحقيقة الإسلام ولذلك التزمت بالصبر الإيجابى الذى يزاول العمل فى إخلاص مع التحمل لشدائد الأمور .

ولو سمح القرآن الكريم للجماعة الإسلامية بالدفاع عن النفس فى هذه المرحلة لما أمكن الدعوة أن ترى للناس على طول الحياة إنها دعوة لخير الإنسانية ولكانت مشادات فى محيط الأسرة بين الولد ووالده والعبد وسيده والمرأة وزوجها ، ولصح للكافرين يومها أن يقولوا إن محمدا ﷺ يفرق بين المرء وزوجه وبين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه .

وليس ذلك هو الهدف ولا هو المنهج كذلك ، ولذلك أكد القرآن فى هذا العهد المكى ضرورة التحلى بالصبر كسنهج ، وهو صبر إيجابي يزاول أعمال الدعوة مع التحمل لأذى الكافرين .

ماذا يكون يا ترى لو وقعت المعارك فى كل بيت ؟ أيكون هذا هو الإسلام ؟ أيكون ذلك هو الهدف الذى يدعو إليه محمد ﷺ .

لقد قيلت دون حرب أو مقتلة أو معركة أن محمداً يفرق بين المرء وزوجه .

لقد قيلت مع الأمر بالكف عن القتال ، لقد قيلت مع الأمر بالالتزام بالصبر فماذا يقال يا ترى لو أن القرآن الكريم أذن بالقتال فى هذا العهد ؟ هنا تبرز حكمة التذرع بالصبر كواحدة من أساسيات العمل مع الجماعة وهذا هو الداء الذى تعانيه الدعوة الإسلامية فى العصر الحديث .

إنه لابد من مرحلة يبرز فيها بالسلوك العملى أن دعوة الإسلام دعوة لخير الإنسان ولكرامته وعزمه واحترامه ، ولن تبرز هذه المعالم إلا إذا صفى الدعاة أنفسهم من كل شبهة تعوق هذه المعالم ، وعن الظهور ولهذا يتكرر الأمر بالصبر فى السور المكية على النحو الذى ذكرنا له نماذج ليعلم المشتغلون بالدعوة الإسلامية أن من منهج العمل مع الجماعة لتبليغ الدعوة « الصبر الطويل » الذى يمكن الغير من التعرف على امتيازات الإسلام .

وقد جعل الله ابتلاء الدعاة فى كل عصر تدريباً تربوياً ليخلصهم إلى طاعته وينقيهم من كل شبهة ويمحصهم من كل آفة .

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣ ﴾

(العنكبوت : ١ / ٣)

توجد هذه الظاهرة كقانون إلهى

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب ٦٢)

وهى اختبار يصفى الله به العاملين والمبلغين رسالاته ولقد كان من معالم هذا الطريق :

* أن سيدنا نوحاً عليه السلام لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى توحيد الله جل شأنه وهو عمر يتيم فى حياة الدعوة لم يتكرر بعد ـ والله أعلم ـ ولكن قومه وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ، فأخذهم الطوفان وهم ظالمون .

* وسيدنا إبراهيم عليه السلام لبث عمراً مديداً لم يحدده القرآن الكريم وكانت نتيجة جهاده فآمن له لوط . وترك قومه وتبرأ منهم وقال :

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾

(الصافات ٩٩)

* وسيدنا موسى عليه السلام ترهق حياته أعصاب المتتبع لها ، فهو يولد فى جو يشيع فيه فرعون الرعب والإرهاب والذعر ، وتقوم حكومته بإعدام أطفال بنى إسرائيل ويولد موسى فى هذا الجو القاسى الرهيب ، ويرمى فى البحر فى تابوت من الخشب ويلقيه اليم إلى ساحل فرعون العاتى القاسى

المتجبر الذى أصدر أوامر الإعدام على الأطفال الرضع ، وإذاً فكيف ينجو موسى .

وألقى الله العلى العظيم فى قلب آسيا رقة ورأفة بموسى فتقول لهم :

﴿ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ (القصص ٩)

وهى إشارة بعيدة أنها هى المتحدثة وهى القائلة : « عسى أن ينفعنا » فالمنفعة لها لصنفها من المؤمنات - مثلها .

ويعاف موسى الأثداء كلها ... وكانت أخته تقصه ثم تدخل القصر وتقول لهم :

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (القصص ١٢)

ويعود موسى إلى أمه كما وعد الله جل شأنه :

كيف كانت أخت موسى تقصه ؟

وكيف استطاعت أن تصل إلى مستوى المشورة والتناصح للقصر الفرعونى ؟

وكيف لا يشك فى موسى وقد عاد إلى بيت من بيوت بني إسرائيل ؟

وذلك كله أمر الله وجلاله وقدرته يقدمها القرآن فى العصر المكى نموذجاً لمضايق العمل الإسلامى وكيف ينقيها الله من عتو الجاهلين .

ثم يشب موسى ويدعو إلى الإصلاح ... وتضطره الظروف إلى الهجرة وفى الطريق لا تتركه الأحداث هادئاً فيرى على ماء مدين امرأتين تذودان والناس في شح لم يرحموا ضعفهما ولا قلة حيلتهما وهو رجل عابر سبيل فتأخذه الشفقة والرحمة امتثالاً لمبادئه العليا فيسقى لهما،ويبرز هنا كذلك سؤال كيف استطاع موسى أن يمنع الناس وهم جمع فى بلادهم وهو رجل غريب ؟ وكيف انصاع الناس إليه ؟ ..... ذلك أمر الله يلحظ فيه الداعية كيف ييسر الله للمخلصين كل سبيل يسهل إلى الخير ويحقق النفع للناس .

وفى مدين يمكث عشر حجج يرجع بعدها مع أهله فتأتيه الرسالة بطريق الخطاب المباشر دون قدرة على الرؤية ويتحمل قولاً ثقيلاً :

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ (طه ٢٤)

ويبدأ موسى بتنفيذ أمر ربه وتكون طريقة الخلاص من فرعون جد شاقة فيؤمر من عند ربه

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الدخان ٢٣)

وحتى بعد الخلاص أثناء السير قال له أصحابه : « إنا لمدركون » من شدة الهلع والخوف .

حتى إذا ما نجوا قالوا :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (الاعراف ١٣٨)

فتمر دعوة موسى عليه السلام فى تسلسل من الصعوبات والامتحانات والابتلاءات ذلك لأن طبيعة الدعوة دائماً تحتاج إلى صبر فى عرضها وصبر على مجابهة خصومها ولهذا رفض رسول الله ﷺ أن يستنصر بالدعاء على كفار مكة ليبيدهم الله بهلاك من عنده نظير ما فعلوه فى جماعة المسلمين ، ففى البخارى .. حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا بيان وإسماعيل قالا : سمعنا قيسا يقول : سمعت خبابا يقول : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد : بردة وهو فى ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت : ألا تدعو الله ؟ فقعد وهو محمر وجهه فقال : لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله - زاد بيان - والذئب على غنمه [(١٧٨)] .

وفى رواية زاد : ولكنكم تستعجلون [(١٧٩)] .

لقد كانت المدرسة النبوية تربى القيادة على أمثل مستوى

---

(١٧٨) البخارى فتح البارى جـ ٨ ص ١٦٥ / ١٦٦ ، المواهب اللدنية جـ ١ ص ٢٦٦ ، دلائل البيهقى جـ ٢ ص ٥٧ .

(١٧٩) السيرة لابن كثير جـ ١ ص ٤٩٦ ، الفتح الربانى جـ ٢٠ ص ٢٢٢ ، راجع فتح البارى جـ ٧ ص ٤٣١ / ٤٣٢ .

يجردها من كل هوى وشائبة لتخلص النوايا والنفوس لله رب العالمين ، وكانت هذه التربية تتمشى مع التوجيه القرآنى ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾
(الأحقاف ٣٥)

فكانت توجه القلوب والحواس إلى رضوان الله وإلى الصبر والتحمل حتى يأذن الله بما يشاء لهذه الطليعة الأولى فى حياتها الدنيا وفى حياتها الأخرى على السواء .

كان الرسول ﷺ يرى عماراً وأمه وأباه رضى الله عنهم يعذبون أشد العذاب فى مكة فما كان يزيد على أن يقول لهم : صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة وفى رواية : صبرا آل ياسر ... اللهم اغفر لآل ياسر ..[١٨٠] .

إن العمل للدعوة الإسلامية بمنهج الصبر وقانون التحمل للمشاق ذلك فإن الصبر جهاد والجهاد فريضة والصبر واحد من ألوان هذا الجهاد .

إن جهاد النفس على وساوس الشيطان نوع من الجهاد .

والجهاد بالصبر على المكاره فى مواجهة أعداء الإسلام نوع من الجهاد والتغلب على شهوة الدنيا العاتية نوع من الجهاد [١٨١] .

---

(١٨٠) الحلبية جـ ١ ص ٣٣٧ .

(١٨١) راجع كتابنا : الجهاد فى الإسلام ط دار القلم بالكويت .

والدعوة الإسلامية فى دور العرض تحتاج إلى نوع خاص من الجهاد هو جهاد الصبر لتمحص المسلم وتجرده من كل شهوة وهوى وتتأكد من صلاحيته للعمل الإسلامي بعيداً عن كل لون ثقافى يتأثر به، مثل :

الثأر والعصبية للجنس ، أو حب الدنيا ، وإيثار الراحة .

إن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد لقوم معينين وسط ظروف معينة هى ظروف المجتمع العربى الجاهلى الذى يؤثر فى حياته مواريث الآباء والأجداد فكان من أهداف هذه التربية تدريب الذات العربية على الصبر واحتمال الشدائد التى لا يصبر عليها بالعادة من الضيم على شخصيته أو من يلوذون به حتى يخلص جسده وعقله وقلبه ووجدانه وفكره لله رب العالمين وحتى يتجرد من ذاته وذات من يلوذون به فلا تكون الذات هى المحور لحياته ولا هى الدافع لتحركه فى وجوده .

وكانت كذلك تربية على ضبط الأعصاب حتى لا يندفع الرجل العربي وراء حماسه لأى مؤثر يشعل حميته ، وحتى لا يهتاج لأول مهيج وذلك حتى يتم الاعتدال فى طبيعته وحركته .

وكانت كذلك تربية على أن يتبع أسلوب حياة جديدة تحت قيادة جديدة يرجع إليها فى كل شىء ويأخذ عنها جميع أمور حياته ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به مهما يكن الأمر مخالفاً

لمألوفه وعاداته ومواريثه ، وقد كان ذلك هو حجر الأساس فى إعداد شخصية الرجل العربى لإنشاء نواة المجتمع الإسلامي الذى يخضع لقيادة مواجهة من الوحى بعيداً عن السلطان البشرى الضال المزيف .

إن إعداد النفوس وتربيتها بناء صعب يحتاج إلى زمن طويل وصبر طويل لكى يعطى فرصة واسعة لمن وضع نفسه فى موضع الخصومة ليتفكروا ويتأملوا ويبحثوا أسباب ردهم للدلائل والبراهين التى طال شرحها وطال عرضها ، ويبحثوا كذلك أسباب تخلق المسلمين بالصبر مع القدرة على اتخاذ موقف دفاعى كما حدث من عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى بدل عنفه على المسلمين قوة لهم ، وغير ظلمه إياهم عدلاً لمبادئهم ودعوتهم بعد أن استروحت نفسيته عبير الدعوة واستنشقت رئتاه نسيم الإيمان فتذوق حلاوة الإسلام فانقاد فى قوة عارمة وعاد من تجبره ليكون للمسلمين عوناً ومعيناً ومساعداً ونصيراً ، وتلك واحدة من أثار منهج الصبر وشاء الله أن يكون ذلك دائماً هو طابع العمل فى الدعوة لما يعلمه جل شأنه من أن بعض المعاندين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ويؤذونهم بأنفسهم سيكونون من جند الله ومن قادة الدعوة المخلصين فيما بعد .

هذه الخلفية التى تحتاجها الدعوة فى مرحلة العرض تحتاج كذلك إلى إيمان بالتفويض المطلق إلى الله جل شأنه فى

تسيير مجريات النصر وأسبابه للدعوة الإسلامية،فإن النصر : معناه ووقته وسببه والذين سيشهدون ملابساته أمور موكولة إلى الله وحده فإنها مقادير عليا تخضع للسلطان الإلهى فحسب ﴿ له مقاليد السموات ﴾ وما على الدعاة إلا أن يخلصوا العمل لوجه الله حسب منهاج الدعوة وأن يؤدوا واجبهم ثم يذهبوا،وواجبهم هنا هو:أن يختاروا الله ورسوله والقرآن الكريم ، غاية وزعيماً ودستوراً ، وأن يؤثروا العقيدة على كل متاع الحياة فى أوج عظمتها وأن يستعلوا بالإيمان على الفتنة فى أشد قسوتها وأن يصدقوا الله في العمل والنية ثم بعد ذلك ليفعل الله بهم وبأعداء دينهم ما يشاء .

وإذن فإنه لمن الخطأ الكبير فى عصرنا الحديث أن نسأل متى نصر الله ؟

إن نصر الله لابد آت لأنه وعده الكريم ولن يخلف الله وعده أبدا ، ولكن مفهوم النصر ليس هو التسلط ولا الحكم وليس هو المال والجاه ، وليس موطنه الحياة فى الأرض فقط .

إن مجال المعركة ليس هو الأرض وحدها وليس هو الحياة الدنيا وحدها وشهود المعركة ليسوا هم الناس في جيل من الأجيال .. بل إن الملأ الأعلى يشارك فى أحداث الأرض ويشهد عليها ويزنها بميزان خاص غير ميزان الأرض فى نوع من أجيالها بل فى أجيالها جميعاً والملأ الأعلى يضم مع الأرواح الكريمة أضعاف أضعاف ما تضم الأرض من الناس ، وما

من شك أن ثناء الملائكة والملأ الأعلى وتكريمه أكبر وأعظم وأجل وأنفس وأرجح فى أى ميزان من رأى أهل الأرض وتقديرهم وموازينهم على الإطلاق ... وبعد ذلك هناك الآخرة وهى المجال الأصيل الذي يلحق به مجال الأرض إن طوعا وإن كرها ثم هو لا ينفصل عنه لا فى الحقيقة الواقعة ولا فى الحس المؤمن فيما يتعلق بهذه الحقيقة .. فالمعركة إذن لم تنته وخاتمتها الحقيقية لم تجىء بعد والحكم عليها بالجزء الذى عرض منها في الأرض فى وقت ما أو فى الأوقات كلها غير دقيق بل وغير صحيح لأنه حكم على الشطر الصغير الأدنى والشطر الزهيد الطائش وصدق الله العلى العظيم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ ﴾

(غافر : ٧)

ثانياً : مرونـة الأساليـــب

أ ـ طول النفس فى عرض موضوع الدعوة .
ب ـ التكافؤ فى المواجهـة .
جـ ـ إيقاف الحرب من أجل السلام .

أ ـ طول النفس فى عرض موضوع الدعوة :

كان الاقناع أو محاولة تعريف العقلية العربية بأساليب النقاش والحوار الهادف من أجل معرفة الحقيقة أسلوباً أساسياً من أساليب الدعوة الإسلامية فى عرض قضايا التوحيد على القوم على نحو ما شرحناه سالفاً .

ولما كان ذلك الأسلوب أساسياً فى عمل الدعوة فقد امتاز بطول النفس وعدم التعجل فى النتائج على نحو ما سنشرحه فى هذا الجزء من الدراسة :

الإقناع هو أحد وسائل الدعوة ، وقد سبقت الدعوة الإسلامية إلى هذا الاتجاه فى العمل مع الجماعة بفوارق جمة .

ـــ إن الاقناع فى نظر الدعوة الإسلامية يقوم على احترام المخاطب فى مشاعره ، وعقليته وآدميته ، وقد أوجب الله على المسلم الصدق والوضوح وحرم الكذب والغدر والخيانة .

ولذا فقد استخدمت الدعوة عديداً من أدلة الإقناع .

لقد قدمت لهم الدعوة أدلة البراهين العقلية والوجدانية ، وجرتهم بأساليب الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، وردت على كل سؤال أثاره الخصم ، وأشركتهم فى عملية الإقناع بطرح العديد من الأسئلة التى لا تجد عندهم من جواب إلا أن يقتنعوا ويؤمنوا .

وقد وضحت هذا فى العرض السابق آنفاً .

ولما كانت الدعوة الإسلامية طويلة النفس فإنها لم تستعجل النتائج ، ولم ينفدصبرها لغلظةالقول وغلظة الرد بل كررت الدعوة وسائلها وغيرت من أساليبها لأن هدفها هو توصيل الحقائق عن طواعية واختيار .

فالنبي ﷺ يصنع طعاماً لأهل الكفر يجمعهم فى بيته ويولم لهم وليمة فإذا ما بدأ يحدثهم عن الإسلام قاموا وانصرفوا .. يعرف هذا حديثاً بما يسمى : طعام عمل : سواء كان غذاء ، أو عشاء ولم يكن انصراف القوم داعياً إلى انصراف النبي ﷺ عنهم أو اتخاذ موقف معاد فقد جاء لهدايتهم وعليه ﷺ أن يكرر ويكرر المواقف لعلهم يهتدون .. فكرر النبي ﷺ المأدبة مرة ثانية وجاء القوم وحدث النقاش . وجاء عبد الله بن أم مكتوم والقوم يناقشون فى أمر الإسلام .

لقد كان القوم من الكبار : عتبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب وهم سادة والناس على دين ملوكهم فلو أسلموا لتبعهم أقوامهم وكان ابن أم مكتوم قد

أسلم فهو من مناصرى الدعوة التى يدعو رسول الله ﷺ القوم إليها تلك حادثة سجلها القرآن الكريم رداً على ما أثاره القوم أن القرآن من تأليف محمد ﷺ فهو شهادة للنبي ﷺ أنه بلغ الرسالة وأن القرآن من عند الله جل شأنه .

ولقد دفع نقاش الكفار إلى معركة مستمرة وصار هناك شبه استقطاب كامل حول قضية التوحيد فقد انعقد مؤتمر محلى يجمع : عتبة بن ربيعة ، وأخاه شيبة ، وأبا سفيان بن حرب ، والنضر بن الحارث ، وأبا النجزى بن هشام ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية والعاصى بن وائل ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأمية بن خلف وقرروا إيفاد سفارة عنهم لتتحدث مع محمد بن عبد الله ﷺ ... وعرضوا عليه أموراً كثيرة (١٨٢) وكانت نهاية النقاش انتصار الدعوة الإسلامية فقد قال سيدهم : قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا هو بالسحر ، ولا بالكهانة : يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيما ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم ، وعزه عزكم . وكنتم أسعد الناس به .

---

(١٨٢) تراجع هذه الأمور فى سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٩٤ / ٢٩٨ .

تلك هى سمة من سمات الإصرار الذى اختصت به الدعوة الإسلامية .أما القوم فقد ردوا بقولهم : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه فقال لهم عتبة بن ربيعة : هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم .

ولم يكن رأى عتبة وقتياً بل كان رأياً ثابتاً رغم أنه استمر مع القوم فى ضلالتهم إلا أن الذى استخلصه من النقاش مع النبي ﷺ شكل رأياً ثابتاً عنده ففي يوم بدر قال عتبة للقوم :

يا معشر قريش : إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه : قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون (١٨٣) .

هكذا نجحت الدعوة فى الإقناع فقد استمر عتبة بن ربيعة على الرأى الذى قاله فى شأن محاربة الإسلام زهاء خمسة عشر عاماً ولكنه للأسف وللعناد الذى أصابه خرج يوم بدر للمبارزة فقتله الصحابى الجليل عبيدة بن الحارث أحد الأكفاء الكرام الذين خرجوا للمبارزة يوم بدر .

وكان إصرار الدعوة الإسلامية فى تبليغ الدعوة اية فى العمل الأخلاقى فهذا أبو سفيان بن حرب يشهد مع أمية بن

---

(١٨٣) ابن هشام جـ ١ ص ٦٢٣ .

الصلت قبل البعثة أن أخباراً تملأ الصوامع بنبأ نبى سيبعث قريباً ، وأمية بن أبى الصلت يظن أنه ذلك النبي فلما ظهر محمد ﷺ قال أبو سفيان لأمية فما بالك لا تتبعه قال : لقد كنت أقول لبنات قريش إنى أنا هو فكيف أتبعه غير أن أبا سفيان ينكر النبوة ويحاول فيها ويستمر الجدل حتى تجره جاذبية القرآن مع نفر من قريش الأخنس بن شريق وأبى جهل ويذهبون فرادى لا يعلم كل بصاحبه ويبيتون الليل يستمعون إلى القرآن الكريم والنبي ﷺ يتلوه فى صلاة الليل وفى آخر مرة ذهب الأخنس بن شريق إلى كل واحد من أصحابه يسأله عن رأيه فيما سمع فيقول أبو سفيان فى لولبية دبلوماسية مثل الدبلوماسية المعاصرة : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها فيوافقه الأخنس .

وتكون الدعوة الإسلامية على الأقل قد جعلت رجلين من ثلاثة فى موقف الحياد وظل هذا الحياد متأرجحاً بين البقاء على الحيادية أو المجابهة حتى تأتى نتائج الدعوة سليمة .

فمثلاً نجد الأخنس بن شريق يوم بدر يرجع عن القتال ويرجع معه حلفاؤه من بنى زهرة وكان ذلك أيضاً هو رأى أبى سفيان بعد أن نجا بالتجارة [١٨٤] .

---

(١٨٤) راجع السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٦١٨ / ٦١٩ .

قال فى الإصابة : اسمه : أبى وإنما سمى بالأخنس لأنه خنس يعنى رجع يوم بدر أسلم وشهد حنيناً ومات فى أول خلافة عمر (١٨٥) .

ولئن كانت الدعوة الإسلامية طويلة النفس فهى لا تتسرع فى جنى الثمار بل تنظر إلى مستقبل النتائج ولو طال عمرها أو كانت النتائج فى الاتباع فأبو جهل لم يكن كافراً لأنه لم يقتنع بالأدلة بل قالها سافرة عندما سأله الأخنس بعد المبيت ثلاث ليال يستمعان فيها إلى القرآن ، قال أبو جهل : « ماذا سمعت ، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه (١٨٦) .

غير أن ولده عكرمة كان من خيرة القادة الذين ادخرهم الله لحروب الردة إذ لا يمكن أن يدرك مستوى الإجحاف بالعقيدة مثل رجل ظل يعاندها ردحا طويلاً ثم يدخلها بعد صفاء ووضوح فعندما يرى الذين دخلوها لعلة يريدون تشويهها فإنه يكون أشد الناس حماساً للدفاع عنها . وكأن الله قد أدخر مجموعة من شباب قريش الذين انغمسوا فى الكفر أحياناً مع

---

(١٨٥) الاصابة جـ ١ ص ٢٥ .
(١٨٦) السيرة لابن هشام جـ ١ ص ٣١٦ .

آبائهم ليوم محنة يدفعون عن الإسلام ثورة ردة اللئام طبعاً وعقلاً وكان ذلك أمر عكـرمة وصفـوان بن أمية . وأضرابهم .... الخ .

ولأن الدعوة الإسلامية تريد هداية الناس لا حربهم ولا إضرارهم ولأنها تريد هدايتهم بالحسنى لا بالإكراه فإنها لم تستعجل أية نتيجة لأى عمل فلا شك أن وجود الأصنام فوق الكعبة أمر مؤلم كريه بغيض لا سيما وصفاء العقيدة كان نوراً يسطع فى وجدانات المسلمين ومع أن الصحابة فى مكة المكرمة يقرأون فى سورة الأنبياء « فجعلهم جذاذا » وكان يمكن أن يقترحوا على النبي ﷺ أن يقوموا بثورة على الأصنام يحطمونها تحطيماً وكان يمكنهم آنذاك أن يستدلوا بالقرآن نفسه وأن يستنبطوا حكماً بوجوب تكسيرها فوراً . لكنهم لم يفعلوا لأنهم يتبعون قيادة يثقون فى صدق إخلاصها للعقيدة فهم ينتظرون كيفية التنفيذ للأوامر التى اعتنقوها .

إنه لو حدث فى مكة المكرمة أن قامت ثورة لتكسير الأصنام لكانت معركة بين أنصار الباطل وجماعة المؤمنين وبذلك تنتهك حرمة البيت العتيق كيف والمسلمون يدعون إلى احترامه وتوقيره فمنعهم الله من هذه الفكرة .

وأيضاً فإن طبيعة الدعوة تخطط ليوم تكسر فيه الأصنام فلا تجد واحداً ولا واحدة من رجال ونساء الكفر تدافع عنها أو تبكى عليها وقد حدث ذلك يوم فتح مكة ، وكانت زعيمة

الكفر هند بنت عتبة وزوجها أبو سفيان الذى انتهت إليه رياسة قريش قد آبا إلى الإسلام بل إن هندا لتصنع طعاماً شهياً لرسول الله ﷺ وتستأذنه فى أن القحط قد أصابهم بالعجز فلم تقدر إلا على هذا القدر الذى أرسلته (١٨٧) .

فانظر إلى هذا المشوار الطويل يوم أن نزل قول الله تعالى :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق ﴾

إلى اليوم الذى فتح الله فيه مكة .

ونزل قول الله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾

(المائدة)

إن الدعوة لم يستخدم فى تنفيذ مناهجها عنفاً أو إكراهاً أو قدمت بوجه عبوس قمطرير بل كانت سهلة رخاء متفائلة سمحة هينة لينة مما جعل النبي ﷺ يصف جماعة المسلمين بقوله : « المؤمنون هينون لينون » وسوف لا يجد أحد من الباحثين فى تاريخ العمل الإسلامى سوى هذه الحقيقة :

« تألفوا الناس وتأنوا بهم ، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم ، فما على الأرض من أهل بيت مدر ولا وبر إلا تأتون بهم

---

(١٨٧) راجع امتاع الاسماع جـ ١ ص ٣٨٣ ، ص ٣٩٧ .

مسلمين أحب إلى من أن تأتونى بنسائهم وأولادهم وتقتلوا رجالهم »

(رواه ابن مندة وابن عساكر)

أليس ذلك هو أرقى أساليب الإقناع ؟

فهل أدرك القائمون على شأن الدعوة المعاصرة هذا السر الرائع لإصرار الدعوة الإسلامية على أن يكون الإقناع اختيارياً وواضحاً ؟؟؟

ب - التكافؤ فى المواجهة :

من أبرز خصائص العمل الإسلامى فى ظل النبي ﷺ هو التكافؤ فى المواجهة .

فعندما كانت الدعوة الإسلامية فى مكة المكرمة لم يسمح النبى ﷺ باستخدام القوة أمام الغاشمين من كفار قريش الذين راحوا يعذبون ضعاف المسلمين ليفتنوهم عن دينهم لأن المواجهة فى هذه الرحلة لم تكن قوة عسكرية أمام قوة عسكرية بل كانت قوة فكرية تجاه خزعبلات وشهوات وظنون وأوهام فى حدس قريش والذين يحملون أفكاراً عليا عليهم أن يواجهوا طغاة الإرهاب بالجلد والصبر وتحمل المشاق لا أن يواجهوا الحمقى من أبالسة الفكر بالعصا والسيف والأحجار والمعاول .

ومن هنا فإن النبي ﷺ غضب عندما سأله الصحابى الجليل خباب بن الأرت أن يدعو الله لينصرهم .

فالمسألة ليست استعداء جند الله على البشر من أجل أن يدخلوا فى رحاب الإيمان ولا هى سلطة تنفيذية لقهر العقول والقلوب ليقبلوا الدعوة ، بل هو الإقناع وصبر الدعاة ولذا قال ﷺ لخباب فى حديث طويل .. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ... ولكنكم تستعجلون .

ولأن هذا المبدأ سديد وسليم وسرمدى فى حياة العمل الإسلامى فقد قال النبي ﷺ :«تألفوا الناس وتأنوا بهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم .»

الحديث (رواه ابن عساكر)

ولما انتقلت الدعوة الإسلامية إلى طيبة وتكونت الأمة الإسلامية وقامت الدولة الإسلامية جهز النبي ﷺ جيشاً فى مواجهة جيش الكفر ولم تكن النية تجهيز جيش الإسلام من أجل أن يضغط على القلوب لتدخل فى الإسلام بل إن العسكريين الذين آمنوا بالإسلام مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل دخلوا فى الإسلام بعد انتهاء المعارك فى جو من السلم وبعد استقرار الأمن فى البلاد .

إنهم الذين أعملوا العقول بعد أن أغمدوا السيف فى قرابه ثم هاجروا طائعين إلى الإسلام .

وهم الذين ندموا على ما فعلوه قديماً فى المسلمين وكفّروا

عن ذنوبهم السالفة بإيثار بالغ الحد فى تحويلهم عساكر المسلمين لحروب الردة .

لم يأت ذلك إلا عن طريق تكافؤ المواجهة ، فلم يضع الإسلام السيف فى مواجهة العقل ولا وضع العقل فى مواجهة السيف .

لم يعكس القضايا كما يعكسها العاملون المعاصرون فى حقل الدعوة الإسلامية .

ويكفى فى هذا ما هو مشهور من تعاليم النبي ﷺ إلى القادة الفاتحين :

ـ لا تقتلوا شيخاً .
ـ ولا راهباً .
ـ ولا امرأة .
ـ ولا صغيراً .
ـ ولا تهلكوا حرثاً ولا نسلاً .

ولا تقاتلوهم حتى تدعوهم إلى الإسلام أو الجزية ولا تقتلوا منهم أحداً حتى يقتلوا منكم واحداً .

فهل أدرك زعماء العمل الإسلامى المعاصرون فقه هذا التكافؤ فى المواجهة ؟؟ لو كانوا قد أدركوا فلم هذا التنظيم القائم على العنف باسم الجهاد مع أن المرحلة هذه مرحلة الإقناع والعقل والحوار .. ؟؟

والذى يظهر احترام الإسلام لتكافؤ المواجهة تلك الآيات

البينات فى سورة الإسراء التى تكرم بنى آدم فى لحظات كان الكفار يعلنون فيها العناد ويتبجحون بأسئلة خرقاء ويذيقون الضعاف ألواناً من العذاب ... وجاءت الآيات تقول :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

(الإســراء ٧٠)

حتى أولئك الجبابرة الذين يعذبون المسلمين الضعاف ؟

ذلك لأن الحق حق ولا دخل للخصومة فى تغيير الحقائق ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى العدل حتى مع أولئكم الذين لا يحترمون المسلمين :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾

(المائدة)

ولا ينبغى أن يتصدى المجتمع الإسلامي لإقامة العدل والفضائل إلا إذا كان متحلياً بها فى نزوع عملى صادق ... ولا يتأتى هذا التحلى بهذه الخلقية إلا إذا أدرك كباره وقادته معنى التكافؤ فى المواجهة .

ونفس القضية فى منع المسلمين من التمثيل بقتلى الكفار

انتقاماً من فعل المشركين بشهداء المسلمين يوم أحد يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(النحل ١٢٦)

بل إن عدالة تكافؤ المواجهة فقه أساسى فى العلاقات الإنسانية فقد حرم الله على المسلمين الاعتداء.

﴿ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(البقرة ١٩٠)

كما حرم على المسلمين نبذ العهد غيلة فقد قال الله تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الأنفال ٥٨)

فتكافؤ المواجهة خلق إسلامى ، وقانون من قوانين الدعوة الإسلامية أكدها الله تعالى فى آيات القرآن الكريم وسنها سيدنا رسول الله ﷺ فى أسلوب دعوته ، فهل أدرك المعاصرون من الذين ألحقوا أنفسهم بالعمل الإسلامى مغذى وهدف

تكافؤ المواجهة ؟ وهل فهموه حق الفهم ؟ وهل دربوا وجدانهم وعقلهم على إدراكه ؟ وهل عقلوا نتائجه ؟؟؟

لو كانوا يفقهون ما وقعوا فى كثير من الأخطاء ؟؟

والتكافؤ في المواجهة واضح تماما في ليلة الهجرة ، إن الكفار صادروا أموال المسلمين بعد أن عذبوهم وألجأوهم إلى الهجرة .

ومع أنهم يكذبون بالإسلام فإنهم لا يجدون مأمنا لأماناتهم وودائعهم إلا عند نبي الإسلام .

فهل كان من العدل أن يأخذ النبي ﷺ كل ما عنده من الودائع ويرحل عوضاً عما أخذه الكفار من المسلمين ؟؟

ربما تكون هناك وجهة نظر مادية بحتة لكن مبدأ التكافؤ فى المواجهة يرفض هذا التعليل أو التبرير فلا يصح فى نظر الإسلام أن ينقلب محل الأمن إلى مصدر رعب ولا محل الائتمان إلى مصدر خيانة بل يجب أن يبقى مصدر الأمن آمناً ومصدر الائتمان أميناً فالمواجهة ليست بين ظلم وظلم وخيانة وخيانة ، بل بين حق وباطل وعلى الحق أن ينتظر بمبادئه لا باستخدام مبادىء غريمه ونديمه وجنده .

ومن هنا كان لازماً أن يبقى سيدنا على رضى الله عنه ليرد إلى الكفار ودائعهم وأماناتهم عندما يهاجر سيدنا رسول الله ﷺ وجنده .

لأن تكافؤ المواجهة يحتم مثل هذا الأسلوب ، فهل دعاتنا المعاصرون عرفوا مثل هذا الخلق .... ؟

هل الذين استحلوا أموال الناس بادعاء أنهم كفرة هم دعاة إلى الإسلام ؟ أو هل هم على شيء من الإسلام .. ؟

إن مبدأ التكافؤ فى المواجهة لهم جد فى تصوره وإدراك مغزاه ، ولزوم العمل به ؟

جـ - التكيف حسب النواميس الكونية :

الدعوة الإسلامية بموضوعاتها العقدية والتشريعية والأخلاقية تعتبر ناموساً كونياً خاصا بحياة البشر ، يفهم هذا بوضوح جلى من قوله تعالى :

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(البقرة ٣٨)

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(طـه ١٢٣)

فاتباع دعوة الله موصل إلى الهدى والسعادة

وعدم الاتباع متسبب فى الضياع والشقاوة

وهذا قانون سرمدى أهلك الله به السابقين من الذين كفروا بأنبيائهم ، يصور ذلك بإسلوب تاريخي واقعى قول الله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

(العنكبوت ٣٦ :٤٠)

وكان يمكن أن يطبق هذا الناموس الكونى على كفار قريش لولا أن بعثة سيدنا محمد ﷺ كانت رحمة للعالمين فمنع الله تعالى عنهم سريان مفعول هذا الناموس . يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(الأنفال ٣٣)

إذن، الدعوة قانون سرمدى حسب نواميس الله فى الكون ، فكل شىء فى هذا الملكوت موزون مقدر حركته ، ووظيفته ، وآثاره يقول الله تعالى :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

(الحجر ١٩ ـ ٢٤)

... وآيات كثيرة فى القرآن الكريم تدلل فى وضوح تام على أن هذا الكون يسير وفق قوانين كونية أودعها الله جل جلاله فيه من أجل خدمة الإنسان ... وإذا كان الكون قد جهز بهذه الجملة الهائلة من النواميس من أجل خدمة الإنسان أفلا تكون الدعوة الإسلامية التى جاءت لتضبط سلوك

الإنسان وعواطفه وعقله وأخلاقياته ... ناموساً من النواميس الإلهية التى تلزم الإنسان بنوع محدد من السلوك الذى يضمن السعادة فى دنياه وفى آخرته ... ؟

والملاحظ فى المنهجية التى استخدمها سيدنا رسول الله ﷺ أنها سارت على هذه الوتيرة من احترام نواميس الطبيعة .

واحترام نواميس الطبيعة أمر كونى رغم الأنف ومن لم يحترمه يقطع على نفسه طريق النجاح سواء فى الزراعة أو الطب ، أو العسكرية .

فالزراعة لها قوانينها ، فالنبات لا يشب مرة واحدة بل لابد له من تربة خاصة ، وموسم زمنى محدد ، وسقى ورى بقدر موزون ، والنباتات محبوس نموها بالمناخ والطقس فنباتات خط الاستواء لا تصلح للزراعة فى منطقة مدار السرطان أو مدار الجدى بل إن النباتات التى تصلح للزراعة في جميع المناطق تختلف فى الحجم والطعم وكذلك الحيوانات فإنها تتشكل حسب المناخ الذي يسود الإقليم الذى تعيش فيه ، فالفيلة فى أفريقيا لوناً وحجماً غير الفيلة في آسيا . والضأن في البلاد الباردة غيرها في البلاد الحارة من حيث كثافة الصوف وحجم الهيكل ومذاق اللحم .

والشيخ الفانى إذا رزقه الله بطفل فهل يستطيع أن يخالف قوانين النمو الطبيعي فيؤكله لحماً وخبزا منذ طفولته ليشب في خلال خمسة أعوام ويصير رجلاً يافعاً .. ؟؟

طبعاً : هذا أمر مستحيل فإن قانون النمو ناموس سرمدى لا يختلف .

وقد احترمت الدعوة الإسلامية قانون النمو لأنه ناموس كونى فأخذت بمبدأ النمو الطبيعي في كل مجالاتها :

١ ـ فلم تفاجىء المجتمع بالجهر بموضوعها رغم أنه قد سبق عديد من الإرهاصات والدراسات والتنبؤات ببعثة النبي الخاتم [١٨٨] بل أخذت الدعوة فى اختيار الأفراد الأول الصالحين للقيادة المحلية ويتصفون بالعقلية الهادئة والإتزان العاطفى ، والفهم السليم ولذلك اتخذت الدعوة لها تدرجاً فى التبليغ : ـ

التبليغ الأول : اختيار القيادة الأولى .

التبليغ الثانى : أنذر عشيرتك الأقربين .

التبليغ الثالث : لتنذر أم القرى ومن حولها .

التبليغ الرابع : وما أرسلناك إلا كافة للناسَ بشيرا ونذيرا .

وهذه الدوائر الأربع تدرج طبيعي قرره علماء الخدمة الإجتماعية فى أسلوب عمل الأخصائى الاجتماعى إذ قرروا : أنه لابد لنجاح أية فكرة يريد الأخصائى الاجتماعى أن يقوم بها لخدمة المجتمع المحلى. أن يربى قيادة محلية تفهم

---

(١٨٨) راجع كتابنا بشائر النبوة الخاتمة .

الموضوع ، وتؤمن به ، وتتحمس للدعوة إليه ، ويكون لديها القدرة المعرفية للتدليل عليه والدفاع عنه [١٨٩] .

ولا يتأتى للداعية أن يدعو الناس إلا إذا كانت عشيرته الأولى قد اطلعت على مبادئه وأبدت رأيها فيها ، وتلك واحدة من بركات سيدتنا خديجة أم المؤمنين الأولى رضى الله عنها : إذ بادرت لأول وهلة تسمع فيها عن نبأ الوحى بقولها : والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر أثبت فإنك نبي هذه الأمة .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه من القيادة الأولى التى تؤكد صدق النبوة لأنه كان صديقاً لرسول الله ﷺ من قبل البعثة فسرعة إسلامه دون السؤال عن دليل ودون كبوة يجدها فيه سيدنا رسول الله ﷺ تفيد أن مبدأ انتقاء القيادة الأولى ومبدأ النمو الطبيعي أسلوب يجب أن تحترمه الجماعة التى تقوم على شأن التبليغ ونشر لواء التوحيد في كل زمن .

٢ ـ وكذلك أخذت الدعوة بقانون النمو الطبيعي فى تشريع الأحكام ، وفى تنفيذها .

فالأحكام الفطرية التى درجت الجبلة على قبولها دون تأفف نزلت متتالية . الصلاة ، ثم الصوم ، ثم الزكاة ، ثم الحج .

وكمال هذه الأحكام أخذ صورة التشذيب والتهذيب حتى

---

(١٨٩) راجع كتابنا : الدعوة الإسلامية فى عهدها المكى : فصل ترتيب القيادة .

انتقلت من طورها الأول الغرض إلى طورها الرائق الرفيع المثالى .

وهناك أحكام مرتبطة بالعادات والتقاليد مثل الخمر والتبنى فإن الدعوة لم تشرعها طفرة ، ولا دفعة واحدة بل أخذت بأساليب التدرج مرحلة بعد مرحلة لتربى النفوس على عادات جديدة صالحة تحل محل العادات القديمة الفاسدة ، وأثبت القرآن الكريم هذه المرحلة ليدربنا على أسلوب العمل بالعودة إلى تنقية المجتمع وسيره مرة أخرى على منوال الدعوة عندما يصيبه شلل أو فشل أو تقهقر عن الأصول الأول لعلل أو أسباب فالصحة والاعتلال طرداً وعكساً أمر طبيعي فكل اعتلال يعقبه صحة عادة ، وكل صحة معرضة للاعتلال ، والشفاء منه تارة أخرى . فالأحكام التى لها صفة جبرية العادة درج الله فيها تدريجاً ليأخذ النفوس بالهوينى والراحة فإن ملكات النفوس عجيبة وصعبة والله لا يحب أن تتجه النفس إليه قسرا ولا قهرا بل بإرادة ورغبة ، وصدق الله العظيم ..

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ (يونس ٩٩)

٣ ـ وكان القتال فى سبيل الله ظاهرة فى احترام الدعوة لقوانين النمو الطبيعي فإن القتال يحتاج إلى :

أ ـ قاعات عسكرية تتربى فيها الجيوش .

ب ـ وتمويل يعين على العمليات العسكرية .

تمويل حربى ، وتمويل مالى .

جـ ـ ويحتاج إلى عمق استراتيجي .

د ـ ويحتاج إلى أن يتحلى الجيش بأخلاقياته التى يدعو إليها دون خلل أو إخلال بالمبادىء .

ولهذا فإن رسول الله ﷺ منع المسلمين من استخدام حق الدفاع عن أنفسهم فى مكة المكرمة تجاه الأذى المشين الذى مارسته قريش ضد المسلمين لأن قانون النمو لا يجعل القوة العسكرية فى مواجهة الفكر بل يجعل الفكر فى مواجهة الفكر ، وأصحاب الدعوات لابد وأن يقدموا دليلاً على التحلى بما يدعون إليه وهذا يحتاج إلى صبر وتحمل ووقت طويل ... وكان ذلك هو استراتيجية الدعوة فى العهد المكى لتظهر طبيعتها الإنسانية التى تحب الخير للناس جميعاً ، ولو كانت الحرب قد شرعت في ذلك الحين لكان هناك تخبط كثير في المبادىء والسلوك ، ولما صح للمسلمين بعد ذلك أن يعلنوا أن مكة بلد حرام . ولما قدر المسلمون يومها على ممارسة أى عمل عسكرى فى هذه المرحلة المبكرة التى لم يعرف بعد بوضوح أبعاد دعوتهم ، ولا طبيعة الغاية التى يدعون إليها ، ولا كان معهم من المدد ، والتمويل والعمق الاستراتيجي ما يسمح لهم بهذه

الممارسة العسكرية ولذلك كان منع الحروب فى هذه المرحلة أمراً خاضعاً لاحترام قانون النمو الطبيعي .

إن احترام سيادة الناموس الطبيعي خاصية من خصائص المرونة للمنهج الإسلامى الذى يوصل الدعوة إلى سبيل النجاح والفوز والأمان .

الأخطـــــاء

العشوائيـــة :

اتخذت الدعوة الإسلامية فى العهدين : المكى ، والمدنى عدة مناهج لتوصيل مبادئها بأسلوب يتفق مع أهدافها وكانت المناهج ذات صبغة مرنة تصورها مقالة السيدة عائشة رضى الله عنها : لو أن أول ما نزل لا تسرقوا لقالوا لا ندع السرقة أبدا ... الخ

ولقد نزل بمكة وأنا جويرة ألعب :« بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » .

ولقد صور تاريخ الدعوة كثيراً من يقظة الصحابة والتابعين للدسائس والمكايد والألاعيب التى حاكها خصوم الدعوة تجاه الدعوة وجماعة المسلمين ، ولم تفلح أفاعيل هؤلاء الأعداءضد الدعوة .

لقد فشل اليهود فى عدائهم للإسلام صدر الدعوة : فلم تفلح فى إثارة قريش ضد الإسلام ، ولم تفلح في محاولاتهم قتل النبى ﷺ :

أ ـ فى حادث بنى النضير .
ب ـ وفى حادث دس السم فى الذراع .

جـ - وفى حادث خيانة بنى قريظة .

د - وفى حادث الإفك المفترى .

ولم تفلح محاولات المنافقين ضد الإسلام :

أ - يوم أحـد .

ب - ومسجد الضرار .

جـ - والتربص بالمسلمين فى كل فتنة .

ولقد هرب النصارى من المباهلة .

ولم يبلغوا مأربهم يوم مؤتة .

وتضعضعوا يوم تبوك ودخلت بلاد من بلادهم فى صلح مع الإسلام .

وفى عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه نجح المؤتمر اليهودى المجوسى الفارسى المسيحى فى اغتيال رئيس الدولة لخطأ المسلمين فى تصورهم أن العمالة القليلة لن تؤثر فى حياة المجتمع الإسلامى فى الخضم الزاخر بجحافل الأمة المسلمة .

ولم يكن تصوراً منبعثاً من اليقظة المعهودة فى جماعة المسلمين فوقع المحظور وقتل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه بيد أبى لؤلؤة المجوسى الصانع الذى رضى به المسلمون ليؤدى لهم حاجياتهم ، ولكن الدولة لم تتأثر كثيراً بهذا الاغتيال فمازالت الأمة الإسلامية تذخر بالكبار من الرجال .

وعرف أعداء الإسلام أن القتل لن يؤثر فى القضاء على دولة الإسلام ومبادئه فطبخوا لهم طبيخاً ثقافياً ليفرق الفكر

الإسلامى ويشتته ويمزق الأمة ويجعل بعضها يقطع رقاب بعض فكانت أفكار عبد الله بن سبأ .

ثم كانت الفتن الكبرى التى ولدن لنا أطفالاً فى الفكر الإسلامى غير شرعيين مثل الشيعة والخوارج وتولدت من مدارس هؤلاء أفكار وأفكار أبعدت الأمة الإسلامية عن منبعها الصافى القرآن الكريم والسنة المطهرة فآلت الأمة إلى ما هو معروف في التاريخ ثم اجتمعت في عهد بنى أمية ، ثم اجتمعت فى دولة العباسيين ثم جاء التتار وأسقطوها ، وجاء الصليبيون واغتصبوا منها المقدس وصور،وتأسست إمارات صليبية فوق الأرض المسلمة وظن الناس أن الليل الكئيب لن ينتهى ، وفجأة تقوم الدولة الإسلامية فى تركيا وتسيح فى أوروبا الشرقية في اللحظة التى كانت المسيحية الأوروبية تطرد الإسلام فى أوروبا الغربية ، وتحاول بالكشوف الجغرافية أن تطوق الإسلام في الموانى البعيدة ، وتطبق على بلاده في الشرق العربي . فكانت يقظة إسلامية بفضل تركيا المسلمة تطرق أبواب أوروبا الشرقية ، ويقظة مسيحية تطرد الإسلام من أبواب أوروبا وتحاول أن تضربه فى بلاده .

غير أن اليقظة المسيحية كانت راسخة فقضت على اليقظة الإسلامية وساعد العرب على طرد تركيا المسلمة من بلادهم فى اللحظة التى كان يخطط فيها الغرب المسيحي للخلاص من المارد الإسلامى ببناء إسرائيل لتكون دملا في قلب العرب فلا

يفيقوا أبدا ومن الأدلة السريعة على هذا أن المؤرخين يقصون خيبة العرب فى أوائل القزن العشرين على أنها يقظة عربية من أجل بناء دولة عربية ويقولون : إن الشريف حسين فى يناير ١٩١٥ م تلقى دعوة من الجمعيات العربية فى الشام لتزعم الثورة العربية ضد تركيا المسلمة غير أنه كان متردداً لأنه كان يود إنهاء خلافاته مع الباب العالى في تركيا ، ويخشى أن يكون انضمامه إلى الثورة العربية مفسداً عليه هذا الأمل ، وكان خائفاً أيضاً من فشل الثورة العربية .

فأرسل ولده فيصل في مارس ١٩١٥ م فى مهمة مزدوجة إلى استانبول ودمشق ليستشف إمكان تصفية نزاعه مع استانبول أو ليبحث إلى أى مدى يمكن الاعتماد على قوة الثورة العربية ومدى ارتباطها بالانجليز .

ونجم عن هذه المهمة أن فيصل بن حسين انضم إلى الثورة العربية الموالية للإنجليز ضد الدولة العثمانية أو ضد الخلافة الإسلامية .

ولما قامت مشاعل الثورة العربية في يونيو ١٩١٦ م (وهو الوقت الذى اتفقت فيه فرنسا وانجلترا على تقسيم العالم العربي بينهما فيما هو معروف بمعاهدة سايكس بيكو) .

تولى فيصل العربي المسلم قيادة الجيش الثالث وهو الجيش الذى كان يتفق بفاعلية أكبر من بقية الجيوش العربية الأخرى فاندفع إلى الشمال وحرر بلاد الحجاز وانضمت قبائل

سوريا واستطاع أن يحرر العقبة في يونيو ١٩١٧ م وهو العام الذى أعطت فيه انجلترا وعداً لليهود بقيام وطن قومى لهم على أرض فلسطين ، ولم يدرك القائد العربي المسلم أنه بهذا يساعد انجلترا في احتلال فلسطين لتسلمها إلى اليهود ، ولم يعلم أن خيبته يوم القيامة ستأتى فى صفحتين إحداهما أنه حارب تركيا المسلمة التى رفضت هجرة اليهود إلى فلسطين بل رفضت أن يمكث يهودى في فلسطين أكثر من ثلاثين يوماً .

وساعد انجلترا الكافرة التى أعطت وعدا لليهود ببناء وطن يهودى فوق أرض فلسطين .

أما فى الدنيا فقد عاقبه الله فأخرجه من كل أرض العرب التى فتحها بجيشه الفعال الظالم الذى اعتدى على جيش مسلم من أجل نصرة جيش كافر انجليزي .

وقد ساعدت هذه العملية العسكرية العربية المسلمة فى نجاح العسكرية الانجليزية فى الحرب العالمية الأولى ودخل اللورد اللنبي فلسطين .

وفى عام ١٩١٨ م أعد اللنبي خطة للهجوم النهائى للإستيلاء على دمشق وتكفل القائد العربي المسلم فيصل بن الحسين بقطع مواصلات الجيش التركى المسلم بين شرق الأردن فاحتل « درعا » فاضطرت القوات المسلمة التركية إلى الانسحاب .

ولكن اللورد اللنبى يدخل إلى قبر صلاح الدين ويقول قولته

الشهيرة : ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين. ولم يستح المؤرخون العرب مما فعله فيصل بن حسين ولا استحيا القوميون العرب من هذه الخيانة فى حق بلادهم وتاريخهم فها هم يساعدون الإنجليز فى الحرب العالمية الأولى فى الوقت الذى خطط فيه الغرب المسيحي للتخلص نهائياً من التحرك الإسلامى التركى أو العربى ، وكان من أوليات التخطيط هو إقامة اليهود في قلب الوطن العربي لتبقى صنابير الصديد تنضح على الحياة العسكرية والسياسية والاقتصادية .

ومع أن العرب قديماً كانوا فقراء لا يؤثرون فى السوق العالمية اقتصادياً فإنهم بعد أن تفضل الله عليهم بالنفط وكان يمكنهم أن يساوموا الغرب على مصالحه فى مقابل احترام قضاياهم ومن أولها قضية فلسطين ، فقد كان البترول العربي عاملاً مساعداً على تقدم الصناعة العسكرية فى العالم الغربى الذى تحمس لبناء إسرائيل وانقلب فائض البترول العربي على الأخلاق فأفسدها وضيعها وصارت الحياة العربية البترولية معروفة فى البارات ، و ... الخ .

وبعد أن استقر الإستعمار فى العالم العربى قامت حركات إسلامية مخلصة وهادفة ولكن أخطأت المنهجية فاعتمدت على الحماس والمظاهرات وإثارة الرأى العام ، ونظرت إلى محيط البشر فى العالم العربى فظنته القوة اللازمة للكفاح ولكن الأمر كان يحتاج إلى تعبئة أخرى ، وفقه أوسع وأساليب واعية .

وتعددت الحركات الإسلامية فتمزقت الأهداف ، وانحسرت كل حركة في اتجاه لا يوصل إلى الغاية التى يجب أن يحرص عليها العمل الإسلامى الواعى وكانت الاتجاهات في أغلبها تدور حول الشكل والمظهر ، وكانت بعض التعاليم ضارة أكثر من كونها نافعة ففتحت الجدل حول البدعة وانقسم المسلمون على أنفسهم وانفتح باب التجهيل والتكفير والتفسيق فكانت فرصة للمستعمر لأن يعيد من جديد سياسة عبد الله بن سبأ فى تمزيق الأمة الإسلامية فكريا لتتمزق عضويا .

حتى الجماعة التى أحست بهذا الخطر وراحت تجمع المفرق ، وتوحد المقسم وتقوى الضعيف عندما قويت وصارت جسماً هائلاً في المجتمع أعجبتها كثرتها وتنوع رجالها من علماء إلى سياسيين إلى عسكريين إلى فلاحين إلى عمال ...
و جلب المرء بنفسه مفسدة ، ومضيعة ، وتورطت في بعض مبادئها ففشلت ، فإن الإسلام لا يسمح أن تذهب كتيبة عسكرية لتقاتل في سبيل الله وهى محاصرة من جميع الجنبات عسكرياً - بل وطريق إمدادها مقطوع ، وسلاحهالا مخازنه ولا صناعته بأمرها بل هو فى يد غيرها .

إن العسكرية الإسلامية دقيقة الحرص ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى بالحذر قبل استخدام السلاح ﴿ وخذوا حذركم وأسلحتكم ﴾ .

لكن العقل الجمعى والمحيط البشرى الهائل كثيراً ما يغلب التعقل والتدبر ويلجىء التصرف إلى العشوائية وهذا هو أول خطأ وقعت فيه الحركة الإسلامية أنها مخلصة ولكنها عشوائية ، وهو أمر ضد التعاليم الإسلامية الموروثة ، وضد منهجية الدعوة الإسلامية التى نجحت قديماً وتركت لنا أساليبها درباً من حافظ عليه وصل .

(الجبريـــــة)

فى مرحلة من مراحل التطور السياسي للدولة الإسلامية ضاقت الأفق والصدور وعجزت عن البحث الطبيعي للخلاص من الضيق الذى تعانيه فى ظل بعض الحكومات فاخترعت فكرة الجبر واخترع مقابلها مطلق الاختيار ونقلت الفكرة المسيحية أيهما أولا : البيضة قبل الفرخة أو الفرخة قبل البيضة وهى فى واقع الأمر ليست كذلك بل هى أيهما أولاً : الإبن أو الأب .

إذا كان عيسى ابن الله فهل هو مساو له فى الوجود أو أن الأب قبلا والابن بعدا ... ؟؟

وانخرطت هذه الفكرة المسيحية فى خياشيم الثقافة الإسلامية وعمل المستعمرون على نشرها وبثها حتى صارت من قضايا الفكر الإسلامى وهى ليست إسلامية ولا مولدها كان إسلامياً ، ولكنها اندست اندساساً فى غفلة من المسلمين عن طبيعة منهجية الإسلام .

والذى يقرأ القرآن الكريم والسنة المطهرة يجد أن هذه الفكرة مستبعدة استبعاداً كاملاً من الفقه والتصور الإسلامى ، سواء نظرنا إلى بنية الإنسان وخلقه أو نظرنا إلى الإعتقاد والإيمان بالله ورسله ، أو نظرنا إلى التشريع والتكاليف .

* ففيما يتعلق ببنية الإنسان وخلقه فقد خلقه الله سبحانه وتعالى على هيئة تستقبل الخير والشر معا وليس في بنية الإنسان جبر على شيء بعينه سواء كان خيراً ، أو كان شراً ، يقول الله تعالى :

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾

(الشمس ٧ ـ ١٠)

فالخلق الأصلى مستعد للفجور وللتقوى،والإرادة الإنسانية قادرة على فعل ما تختاره من التزكية أو الدس .

وفى سورة الليل توضيح لمسالك السلوك الإنسانى ، يقول الله تعالى :

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾

(الليل ٥ ـ ١٠)

فالاختيار لأى من اليسر أو العسر ، الخير ، أو الشر ، الصلاح ، أو الطلاح،أمر مركوز في بنية الإنسان وخلقيته فليس البناء الذاتى للإنسان بمقصور على نوع واحد من البديلين الخير أو الشر .. وإلا لو شاء الله لجعل الناس أمة

واحدة ، ولكنه جل شأنه جعل الناس فى ذات بنيتهم قادرين على فعل الخير والشر .

وأما فيما يتعلق بالاعتقاد فقد وضح من عرضنا لأدلة التوحيد أن الله سبحانه وتعالى أراد من الناس أن يؤمنوا به طواعية يقول الله تعالى :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف)

فليس فى الإسلام قسر على الاعتقاد بالله الواحد الأحد ولكن فيه دعوة إلى التفكير والفهم يقول الله تعالى :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾

(البقرة ٢٥٦)

وهذا الاستيثاق مرده النظر فى البراهين والأدلة وليس مرده القسر والقهر والجبر يقول النبي ﷺ :

(تألفوا الناس وتأنوهم ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم فليس على وجه الأرض من أهل مدر ولا وبر إلا جئتم بهم مسلمين خير من أن تأتونى بنسائهم وأولادهم) .

إذن فليس فى القرآن ، ولا فى السنة النبوية المطهرة جبر فيما يتعلق بالعقيدة والإيمان بالله الواحد .

ولم يضع الإسلام جيشاً عسكرياً في مقابل الاقناع بالله الواحد الأحد بل جعله في مقابل جيش عسكرى يريد أن يعتدى .

فالعسكرية الإسلامية إما :

- أن ترد اعتداء .
- أو تؤدب ناكثاً للعهد .
- أو تجهض جيشاً يعتزم الحرب ضد المسلمين .
- أو تحمى سيادة الدولة وأملاك الرعية وأفرادها .

ولا يحفظ التاريخ العسكرى للجيش الإسلامى إلا واحدة من هذه الأنواع الاستراتيچية فاستخدام الجبرية من بعض دعاة العمل الإسلامى المعاصر تغفل أيما تغفل وجهل أيما جهل ، وخروج على المنهج السوى ولذلك لم يفلحوا .

وأما فيما يتعلق بالتكاليف الشرعية فهى قائمة على الرضا من كلا الطرفين في البيع وفى الزواج على الأخذ بقول النبي ﷺ

- « البيعان بالخيار » .
- « لا تنكح البكر حتى تستأمر » .

إذ أسلوب الجبر أو القهر أو العنف أو التطرف مرفوض إسلامياً ، بل إن النبي ﷺ قد وظف من الأمة الإسلامية جماعة تحمى الإسلام من هذا الغلو فى قوله ﷺ : يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فى :

- ينفون عنه تحريف الغالين .

ـ وانتحال المبطلين .
ـ وتأويل الجاهلين .

ـ **تحريف الغالين** : هم المتطرفون الذين لا يسيرون بالدعوة على منهجها ولا يحترمون مرونة هذا المنهج وينظرون إلى مثاليته قبل أن تأتى مرحلتها الزمنية حسب التكتيك الذى يجب أن يرسم للوصول إليها .

ـ **انتحال المبطلين** : هم أولئكم الذين يدخلون فى الإسلام أوهاما كادعاء النبوة ، وسقوط التكاليف الشرعية ، وإلغاء مفهوم الدولة فى الإسلام .

ـ **وتأويل الجاهلين** : هم أولئكم الذين يصفون العمل البشرى بأنه بدعة كالذين يقولون إن قراءة الكهف في المسجد يوم الجمعة بدعة فانظر كيف أولوا ليجعلوا من قراءة القرآن المعصوم فى المسجد فى يوم جماعة المسلمين بدعة ، أفليست هذه وصية لا تصدر إلا عن جاهل .. ؟؟ وهلم جرا .

ولقد جنحت جماعات ـ وجمعها يخرجها عن الأمة الإسلامية لأن الأمة الإسلامية واحدة فى العقيدة والقبلة والنبي ، والصلاة ، وجميع أركان الإسلام فكيف تفرق نفسها لتصير جماعات ثم تدعى أنها تعمل باسم الإسلام ، جنحت هذه الجماعات إلى العنف والجبرية فى الشكليات لا فى الأمور

الهامة التى عمدت إليها الدعوة قديماً فأقامت دولة وجيشاً ، وأمة .

وهذا الجبر أو العنف من أخطر ما ينسب إلى الإسلام لأنه ضد مبادىء الإسلام التى تدعو إلى السلم : « والله يدعو إلى دار السلام » وتدعو إلى الأمن : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (الأنعام ٨٢)

أولاً : لاعتقاد هؤلاء أنهم على الحق وما هم على الحق .

ثانياً : أنهم أخذوا الذات نموذجاً والحديث مع الذات صعب وقاس وحساس .

ثالثاً : أن مصالحهم الشخصية مرتبطة بهذا السلوك والحديث عن المصالح الشخصية صعب وخطير كذلك .

والنموذج الذى أقدمه ليفهم هؤلاء أن الأمر فى الإسلام بالذات ليس بالعنف ، موضوع (الأصنام) فقد بعث سيدنا محمد ﷺ ليعبد الله وحده لا شريك له وبعث وأمر : أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً .

ومعنى اتباع ملة إبراهيم أن يقوم مثل جده ويكسر الأصنام بالفأس فهى كثيرة فوق الكعبة لكنه لم يفعل لأنه يريد لها تكسيراً بالمنهج لا بالمعول ، والصحابة رضوان الله عليهم لم يسألوا رسول الله ﷺ أن يكسرها أو يكسروها معه على ذمة ما فعله سيدنا إبراهيم لأنهم أسلموا عقولهم للمنهج الذى جاء به سيدنا محمد ﷺ .

والعقلية المعاصرة من الشباب المتطرف أو الجبرى لو كان موجوداً مع الصحابة لحاجهم وقال لهم :

إن الله أمر نبيه أن يتبع ملة إبراهيم

وإبراهيم قد كسر الأصنام بالفـــأس

فلا بد من ثورة وأن تكسر الأصنام بالفأس

ولأوجدوا جدلاً وصخباً كالذى نلمسه فيهم وفى سلوكهم المستوجب للجهل الذى يضفونه على الإسلام والإسلام من هذا كله برىء .

فقد عرف تاريخ الدعوة أن رسول الله ﷺ كسر الأصنام يوم فتح مكة وليس لها واحد من أتباعها القدامى يدافع عنها ، بل إن عكرمة بن أبى جهل وأبا سفيان بن حرب ، وزوجته هند وهم من صناديد المدافعين عن الأصنام كانوا يشاهدون تكسيرها وهم سعداء ويرددون مع المسلمين: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، ذلك لأن منهج الإسلام عميق وفسيح وسرمدى فهل للمعاصرين أن ينصاعوا فى أدب وتواضع ومعرفة لله ولرسوله ... ؟؟

(الجمـــــــود)

الإسلام حركة منهجية عملية لا ترتكز على النظريات والشروح وإنما تقوم على العمل والبناء ، وقد دلت آيات كثيرة فى سورة الكهف والإسراء على أن كثيراً من طلبات الكفار التى تعللوا بها ليدخلوا في الإسلام قد رفضت من الله جل جلاله وقال لنبيه ﷺ فى الرد عليها :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(الإسراء ٩٣)

وباختصار يرد الله على منهج السفسطة والجدل والنقاش :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (غافر ٧٨)

﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ (الإسراء ٥٩)

ولو أن الصحابة رضوان الله عليهم استجابوا لمنهج القيل والقال وكثرة السؤال لما تحرك الإسلام قيد أنملة من بطحاء مكة ، ولكنهم صبروا ، وجاهدوا ، ورحلوا وانتقلوا ، وعملوا ، وتاجروا ، وزرعوا ، وحصدوا ، وبلغوا دين الله بالقدوة الطيبة والعمل الصالح والأسوة الحسنة .. فانتقل الإسلام بفضل عملهم الدءوب سريعاً من آسيا إلى أفريقيا إلى أوروبا فى أقل من قرن كأنما الأرض قد انزوت لهم لينتشروا بسرعة هائلة مذهلة فى هذه القارات الثلاث ثم ظهرت فى مرحلة النكسة

باسم العمل الإسلامى حركات تفننت في الملصقات والشعارات فبعضها يسمى نفسه :

ـــ السلفى .

ـــ الأصولى .

ـــ جماعة المسلمين .

ـــ أنصار السـنة .

وضاقت أفق كل جماعة فلم تلحظ من الإسلام وهو بحر ذاخرٍ إلا زاوية ضيقة : أو : هم لم يفهموها حق الفهم ، ولم يضعوها فى إطارها مع بقية الزوايا التى تشكل هيكل الإسلام ككل ، يضاف إلى هذا : أنهم أخذوا الزاوية المحددة نصا دون أن يفقهوا منهج تنفيذها وتطبيقها لأن عقليتهم عقلية جدل وانفعال شخصى معتد برأيه الذي يخفيه فى التعصب لفكرة أدعى أنها هى الإسلام كله .

ومن هنا جاءت المفارقات فى هذه الدعوات ودعت هذه المفارقات إلى الفرقة والاختلاف وجر هذا إلى القطيعة والتدابر والخصام فوقعت هذه الجماعات أو الفرق أو النحل في محظور نهى عنه الإسلام نهياً واضحاً .

« لا تدابروا ولا تحاسدوا ، ولا تخاصموا ، وكونوا عباد الله إخواناً »

(رواه البخـارى) ..

وفي القرآن الكريم نص صريح واضح :

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (آل عمران)

والعجيب أن القلب المفعم بالإيمان أو القلب الذى يستحى من نور الإيمان ينصاع إما انصياعاً حقيقياً إن كان مؤمناً صادقاً أو ينصاع في الظاهر إن كان يريد ألا يورط نفسه في فضيحة النفاق ... إلا أن هؤلاء تبجحوا وافترقوا ، ووسعوا التفرق وتشددوا في التشدق بالآيات والنصوص التى وضعوها وحدها فى زاوية خاصة وسلطوا عليها عقليتهم وجعلوها الإسلام كاملاً ، وتجاهلوا :

ـ إنما المؤمنون إخوة .
ـ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض .
ـ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات .
ـ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء . . . الآيات .

إنما يؤولون هذه النصوص المحكمة الواضحة الصريحة لأنها تفضح طريقهم المعوج الجامد فى الجمود الذاتى كعقلية

متحكمة لا تعرف أصولاً ، ولا سلفية ، ولا وحدة للمسلمين ولا تنصر سنة ، فليس فى سنة سيدنا محمد ﷺ ما يساعد على الخصام ، والتفرقة والتكفير ، والتفسيق وتزكية النفس .

ومن أغرب الأمور أن الأمر الوحيد الذى نهت السنة الصحيحة عن التعرض له هو طلب الإمارة ففى مسلم :
ـــ يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة أكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها .
ـــ إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه ولن أَوْ لا تستعمل على عملنا من أراده ..
ـــ يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها .
ـــ وما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .
ـــ ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة (١٩٠) .

إن هذه الأحاديث التى رواها مسلم وعنون لها : باب النهى عن طلب الإمارة والحرص عليها.لم تجعل هؤلاء الذين عرضوا أنفسهم لأخذ البيعة لأنفسهم بأنهم خلفاء رسول

---

(١٩٠) هذه الاحاديث رواها مسلم فى كتاب الامارة : باب النهى عن طلب الامارة والحرص عليها .

الله ﷺ ، ولا أدرى كيف تبجحوا والنصوص تمنع أن يزكى الإنسان نفسه يقول الله تعالى :

﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾

(النجم)

ويقول الله تعالى :

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩ ﴾

(النساء)

ولم يرعوا لهذه الآيات وتلك الأحاديث احترامها وأساءوا أدبهم مع الله ورسوله وزكوا أنفسهم باسم السلفية والأصولية وجماعة المسلمين واختلفوا فى المطالبة بالبيعة ، وارتبك العمل الإسلامى بالمراهقين فى الفهم الإسلامى والمجادلين بغير حق فى النصوص الإسلامية .

فكانت هذه إحدى الأخطاء الكبيرة الفاحشة التى خالف فيها أصحاب العواطف الخاصة نصوص القرآن والسنةلمصالح شخصية ثم جعلوها ديناً وإسلاماً وخلافة وبيعة وكلها أسماء لا يعرفون لها معنى ، ولا يدرون لها منهجاً ، ولا طريقاً ، ولذلك لم ينجحوا .. لأنهم جامدون

كالحجر الذى ألقى فى جانب من النهر ويمر عليه ماء الحياة عذبا وهو لا يشعر به ولا يحس .

إن الإسلام هو ماء الحياة وهو كالموج فى المنهجية ولسفينته شراع هى مرونة هذا المنهج وقد عطلت العقلية المعاصرة مشاعرها ووجدانها وأغلقت عينها عن مشكلات الحياة المعاصرة والتكتلات الحديثة فانعزلت وانزوت وخسرت هذا الدين كما خسروا أنفسهم وأوطانهم لكن هل سيفيقون ... ؟؟

ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول :

ـــ لا تروعوا المسلم فإن روعةً المسلم ظلم عظيم

(رواه الطبرانى ـ حديث حسن)

ـــ لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله .

(رواه الحاكم وأحمد ـ حديث حسن)

ـــ كفى بالمرء فقها إذا عبد الله ، وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه .

ـــ لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .

(رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنة)

ـــ اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم .

(رواه الطبرانى حديث صحيح)

ـــ لعل الله يهدى الناس إلى سواء السبيل ..

(التكســــب)

كان التكسب بالشعر ظاهرة في ظل الدولة العباسية ومع هذا فلم يكن يشكل خطراً على الدولة فإن التاريخ يشهد أن ملك الروم عام ٣٠٥ هجرية أرسل سفارة عسكرية لطلب عقد هدنة مع الخليفة المقتدر فأدخلوا البعثة العسكرية قصور الخليفة الفخمة التى فرشت بأجمل الفرش وملئت دار الخلافة ودهاليزها ، وممراتها بالجند والسلاح وابتدأ ذلك من باب الشماسية إلى دار الخلافة وكان عدد الجند مائة وستين ألفاً بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة (١٩١) ... أ هـ .

فالتكسب بالشعر فى عهد العباسيين كان تفكها ترفيا فى ظل دولة قوية مرهبة الجانب من الخصوم ، لما تظهر بعد منظمات دولية تلتف على عنقها لتخنقها وتزهق روحها .

أما فى العصر الحديث وقد تداعت كل الأمم قويها وضعيفها على العرب والمسلمين فإن التكسب الذى يمقته الله

---

(١٩١) شوقى ضيف ص ٧٠ العصر العباسى الثانى دار المعارف ط ٢ .

ورسوله وجماعة المؤمنين هو التكسب بالدعوة الإسلامية .

وقد أخذ التكسب بالدعوة الإسلامية عديداً من المظاهر والأساليب ومن أبرزها :

أ ـ مكاتب بيع المنح الدراسية .

ب ـ الاستيلاء على التبرعات الموقوفة لصالح خدمة الدعوة الإسلامية .

جـ ـ فرض وصاية على العاملين فى حقل الدعوة من صنف معين اتهم نفسه بأنه وحده الوصى على دين الله فى الأرض .

د ـ التنافس على الشـهرة .

أولاً : مكاتب بيع المنح الدراسية

يقدم الأزهر الشريف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ورابطة العالم الإسلامى وغيرهم من المؤسسات الإسلامية آلاف المنح الدراسية للجامعات الإسلامية ، ولو وضعت هذه المنح فى الوضع السليم الصحيح لكانت الفوائد أكثر أثراً فى حياة الأمة الإسلامية فمثلاً لو كانت المنح تقدم بناء على الختبار في اللغة العربية ومواصفات في التفكير والأيديولوچيات والشخصية الإسلامية لكنا استثمرنا المنح الدراسية استثماراً نافعاً ومفيداً وزودنا الأمة الإسلامية بشخصيات مثقفة واعية ذات قدر كريم في الفهم والعزيمة والإدراك والعمل .

ولكم عانى العمل الإسلامى من المقارنة بين المتخرجين من جامعات الشرق الإسلامى والجامعات الأوروبية إلى درجة أن بعض البلدان الإسلامية تفضل خريجي جامعات أوروبا في الدراسات الإسلامية على نظائرهم من خريجي جامعات الشرق الإسلامى بسبب حركة خريجي جامعات أوروبا ويقظتهم ونوم وكسل خريجي جامعات الشرق الإسلامى .

وفى الحق ليست المسألة مسألة خريجي الشرق أو الغرب ولكنها مسألة التكسب بالمنح الدراسية التى تمنح من الشرق الإسلامى ، ومن البلاد الأوروبية .

البلاد الأوروبية تشترط شروطاً تحترمها الدول المرشحة وتراقب تنفيذها سفارات الدول الأوروبية ولذلك لا يرشح إلا المستوى اللائق الذى يصلح للتربية التى أعدت له هناك فى أدمغة المخططين ضد الشرق الإسلامى والأمة الإسلامية .

فلا تقدم منحة دراسية عن طريق المحسوبية ، أو الشراء أو لشخصية ضعيفة بل لابد من التحقق من الشخصية القوية التى تصلح للقيادة عند عودتها بعد انتهاء الدراسة .

أما مرشحو منح الدراسة للشرق الإسلامى فهناك مكاتب معروفة ومعلنة دون خجل ولا حياء تعلن عن بيع المنح الدراسية ، وقد يضحك الإنسان عندما يعلم بالمهازل التى تقع من جراء هذا المزاد العلنى لبيع المنح الدراسية ، فالمنحة تباع أولاً لواحد من الناس ، ثم يأتى آخر ويزيد على الأول فيشترى المنحة وترد أموال الأول ثم يأتى ثالث ويزيد فيشترى المنحة وترد أموال الثانى وهكذا .

ومن هنا يتأخر المرشح عن الموعد المطلوب للالتحاق بالجامعات ، ويأتى ضعيفاً هزيلاً في قدرته المعرفية ، واللغوية ، و ... الخ .

وقد لا يستمر فى الدراسة بأسلوب طبيعي فيتعثر سنوات حتى إذا ما عاد عاد منهكاً هزيلاً قد سبقه أقرانه فى كل شيء .

وتكون الثمرة الطبيعية التى قدمت للعمل الإسلامى هذا العجاف الهزيل المميت .. فتخسر الدعوة الإسلامية بهذا كثيراً ، وتضعف كثيراً .. وتفتح باباً للخصوم أوسع للانتصار عليها بسبب هذا التكسب ببيع المنح الدراسية التى تضيع هباء منثورا .

وقد حضرت مباحثات رسمية بين الأزهر ومسئولين فى بعض الدول الإسلامية فطلبوا من الأزهر ألا يسمح بإعطاء منحة لكل طالب يسافر إلى مصر دون موافقة الحكومة المعنية .

وكشفت مناقشة هذا الموضوع عن محاولة لتكتيف الأزهر وحرمانه من حمايته لجميع أبناء الأمة الإسلامية ، وبخاصة أولئك الذين يتحملون نفقات باهظة على حسابهم الخاص من أجل طلب العلم في الأزهر بإخلاص ونية حسنة فهل ستظل اليقظة هكذا .. ؟؟

٢ ـ الاستيلاء على التبرعات :

كان الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله سخى اليد والعطاء من أجل خدمة الدعوة الإسلامية ، وكان رحمه الله شديد العاطفة نحو المسلمين فى خارج المحيط العربى ، فإذا ما اقتنع بضرورة تقديم خدمة للإسلام فى بقعة يحاصر فيها المسلمون فإنه يعطى بقدر ما يملك ويمكن .

وقد حوصرت بعض الحركات الإسلامية فى بلد ما من بلاد العالم الإسلامى ولم تكن هناك مطبعة يطبع فيها للإسلام شىء غير مطبعة استعمارية صليبية تغالى على المسلمين وتمتص دماءهم وتطبع لهم أردأ طباعة وأقبح إخراج ... وعلم الملك فيصل رحمه الله بهذا الضيق للمسلمين فأرسل مائة ألف جنيه استرلينى لبناء مطبعة إسلامية لفك ضيق الطباعة للعمل الإسلامى .

وكان المفروض أن يسرع الذين قبضوا هذا المبلغ فى إنشاء المطبعة خدمة للجماعة الإسلامية أولاً وخدمة لوطنهم الكبير

الذى يحتاج إلى مساعدة منهم ، ثانياً : وفاء بالالتزام الذى تحملوه أمام الله والمرحوم الملك فيصل .

ولكن الذى حدث أن رفعت لافتة على قطعة أرض فى أكبر شوارع العاصمة لكى يراها كل الناس وكتب عليها (أرض مخصصة لبناء المطبعة الإسلامية) واستمرت اللافتة معلقة على هذه الأرض حتى استشهد الملك فيصل رحمه الله وما قامت المطبعة ولا رآها الناس إلى يومنا هذا وضاع بذلك على المسلمين باب فرج ومساعدة لبناء مطبعة مستقلة عن التبعية للمطبعة الصليبية الاستعمارية التى لا تؤتمن على سر ولا يوثق فيها أخلاقياً ، وتمتص دماء المسلمين ، وتخرب ذممهم ... ؟؟ .

وبعض آخر كان نصف أمين فقد تقبل المنحة المالية وبنى عدة فصول دراسية وأقام « ڤيللا » فخمة من نفس الأموال الموقوفة على العمل الإسلامى .

وبعض آخر يتاجر فى أموال الوقف أو التبرع فيضعها في البنوك بفائدة معينة إلى زمن معين ومن ربع هذا المال يأخذ في

تنفيذ المشروعات بتلكؤ ، وتعثر ، وسير بطىء ،

وبعضهم يدخر هذه التبرعات لينفق منها على سفرياته إلى أوروبا وأمريكا ليخطب خطبة عصماء ثم يرجع وقد دفع هذه الأموال إلى شركات الطيران غير المسلمة ، والفنادق غير المسلمة ، ويقتنع أنه أنفق المال فى سبيل الدعوة الإسلامية .

وقد سافرت إلى ماليزيا فى يناير سنة ١٩٨١ م وزرت داراً مسلمة للأيتام فى منطقة سكانها جميعاً بوذيون فوجدت بعض هؤلاء الذين يجمعون آلافاً مؤلفة من الدولارات للعمل الإسلامى قد كتب كلمة بليغة مقدراً هذا العمل الجليل الذى يرعى براعم المسلمين ، ولما سألت مدير الدار عن القيمة التى تبرع بها صاحبنا فقال لا شىء ، فكتبت تحت كلمته : يا شيخ فلان إذا جئت زائراً هذه الأماكن فاحمل معك من أموال المسلمين ما تدفع عن أصحاب هذه الحقوق غيلة الفقر والفاقة .

وبعض آخر يأخذ الزكاة ويدخرها ليشترى بها ماء وجوه الناس فيدفعها عنه أهله أو أهل أصحابه أو أتباعه للمساعدة

فى مشروعات تحسب لاسمه ، ويمتدح بها ، ويتيه بها على الناس فخراً وإعجاباً .. ويكون كل هذا باسم العمل الإسلامى ؟؟

إن الله لا يتقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم

﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦ ﴾
(العنكبوت ٦)

٣ ـ فرض وصاية على العاملين فى حقل الدعوة الإسلامية :

فى عام ١٩٧٤ م جاءنى صحب كريم يستحثوننى للإسهام في تذليل العقبات أمام العلامة المجاهد الكبير الذى يدفع عن الإسلام غيلات الزحف الشيوعى ، وهجمات التيارات المناهضة للإسلام وذلك ليقبل بحثه الذى يريد أن يتقدم به لنيل درجة الدكتوراه ، وكانت مدته القانونية قد انتهت وكان موضوع رسالته غير لائق علمياً مع الكلية التى يطلب فيها شهادة الدكتوراه .

وأذكر أنهم يوم أن عرضوا علىّ مسألته قد أفهمونى أن

الإسلام سوف يضيع على ضفاف الخليج العربي إذا لم يحمل ذلك الرجل شهادة الدكتوراه فإنها سلاح له من أجل رفع كلمة التوحيد ، ونشر مبادىء الإسلام ، ومحاربة التبشير المتغلغل فى جنبات الخليج العربى وخلايا الشيوعية المتسربة فى كل شبر .. الخ وصدقتهم لأنه رجل له سمعة طيبة أيام أن كان طالباً .. وشاء الله وأذن وهو وحده المدبر والمسير للأمور ومنح هذا العالم ذائع الصيت شهادة الدكتوراه بعد بذل مساع عديدة وكثيرة ومتنوعة لفتح باب قبول البحث للمناقشة .

ودارت الأيام وسمح الله لى أن أطلع على الأحوال في بلاد الخليج العربي فوجدت المجاهدين في سبيل الله قد قلبوا العمل الإسلامى إلى عصابة قاطعة للطريق وهى أيضاً تتعلل بهذه العلة : الجهاد في سبيل الله .

لقد وجدت هؤلاء القوم قد فرضوا وصاية على كل كلمة تقال حتي ولو كانت من بعض أصحابهم لأنهم يرفضون صوتاً يعلو على صوت إمامهم وشيخهم ، فالعمل الإسلامى هنا يسير بإشارة من سبابته وليس لأحد رأى .

فلا أحد يظهر فى التلفاز ، ولا يتكلم متكلم فى الإذاعة ولا يصعد أحد منبرا ، ولا ينشط في جهة من الجهات إلا بإذنه وأمره ، ولو صادف أن استطاع واحد أن يفلت من

الحصار فإنه ينبه على الأتباع ألا يذهبوا إلى الاستماع إلى ذلك المنشق المتطاول على سيادته ومن يذهب يعاقب ويهدد بإلغاء العقد ، أو الطرد من محبة ذلك الكبير .

يضاف إلى هذه الشائعات التى تلاحق ذلك المنشق والافتراءات والمكايد وتسلط السفهاء عليه .. وكل ذلك يتم باسم الجهاد فى سبيل الله .

هذا جانب ، وجانب آخر فقد قسم هؤلاء الأصحاب المنافع وجلب الأموال على جغرافية بلاد الخليج العربي فالذى يقطن الطرف الغربى من الخليج يستحوذ عليه ويؤلب الناس لصالحه ، ويغلق أبواب منطقته على من يسكن وسطه أو شماله أو شرقه .

وتجد بين هؤلاء الأخلاء الذين يجاهدون فى سبيل الله متخاصمين متقاتلين من أجل وضع قوسين على كل المنافع لصالح كل منفرد .

وكان من ثمرة ذلك أن ضاع الجهاد فى سبيل الله وانزوى هؤلاء فى نقرة من الحقد وانطلق التبشير يقيم كنائس فارهة واسعة عالية ، وانفسح المجال له للمراسلة والدعوة إلى داخل قعر بيوت هؤلاء فقد أداروا للإسلام ظهورهم وأقبلوا على الدنيا ببهرجتها وزخرفها ولكن للأسف مازالوا يكذبون على الله وعلى الناس ويقولون إنهم مجاهدون فى سبيل الله وأنهم هم الأوصياء على دين الله وكل من يعمل فيه ..؟

ومن أين لهم هذا ؟؟ لا أدرى فإن سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم أن جاءه خطاب العزل من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان يتهيأ للمعركة الفاصلة يوم اليرموك لم يدفعه حماسه لنفسه أن يترك المعركة ويسلم القيادة لأبى عبيدة ليصنع فى الحرب مايشاء ، فإن ذلك مضيعة للجيش وللمعركة ، بل إن سيدنا خالد بن الوليد رضى الله عنه ضرب لنا المثل الأعلى للعقلية المجاهدة بصدق فى سبيل الله فأخفى الخطاب حتى انتهت المعركة وانتصر المسلمون وعندئذ فقط سلم خالد النصر الذى أحرزه وخطاب العزل إلى القائد الجديد وصار خالد واحداً من عساكر المسلمين تحت امرة أبى عبيدة بن الجراح .

فانظر إلى خلقية الجهاد الحقيقى فى التصور الإسلامى ، وانظر إلى المنصب المبتدع الذى أضفاه هؤلاء المتاجرون باسم الإسلام أنهم وحدهم الأوصياء على دين الله وعلى كل من يعمل فى سبيل الدعوة إلى الله ..؟؟

هل يتصور أن قوماً يزكون أنفسهم بدون مبرر ولا أصل يتقبل الله منهم عملاً فينصرهم ؟؟

إن نصر الحركة الإسلامية المعاصرة مؤجل حتى يستغفر المذنبون من فعالهم التى لا تتفق مع أخلاق الدعوة وأخلاق الجهاد النقى بصدق لتكون كلمة الله هى العليا .

(الحـــل)

قبل أن نرقى إلى التجرد الشفاف الذى يفرض علينا حلول هذه الأخطاء أحس بسؤال يضغط على أعصاب كل مخلص وهذا السؤال هو :

هل سنقبل الحل ....؟

إن بعض الأمراض تصيب الناس بتلذذ حتى يصير الداء ألذ من الدواء .... وبخاصة أولئكم الذين يعيشون فى الوهم ويقنعون أنفسهم بأحلام اليقظة أنها آمال ستتحقق ؟

إن الله جل جلاله فى سورة التوبة قد وضع مواصفات للعقلية الإسلامية التى تنصاع إلى الحق وتنساق فى سلوكيات يتطلبها الإيمان الصادق يقول الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (التوبة ٢٣ ، ٢٤)

وهذه التجلية لمطالب الإيمان مرحلة أساسية فى صحة العقيدة وقد أطنب القرآن الكريم فى كثير من سوره وآياته ليوضح مدلول المؤمن الخالص الصادق : ففى سورة التوبة :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(التوبة ٤٢)

ويقول جل شأنه :

﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (التوبة ٤٤ ، ٤٦)

إذن العقلية المسلمة الصادقة هى التى تنزع إلى الجانب السلوكى لمطالب الإيمان دون ريب أو اعتذار أو تبرير أو تأويل .

وتنجلى الصفات الإيجابية للشخصية الإسلامية فى سورة النور يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

(النور ٦٢)

وتنضم سورة الحجرات إلى هذه الأريحية فى تبيان خصائص الشخصية المسلمة الخالصة فيقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(الحجرات ١٥)

وكذلك آيات سورة الأنفال يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ

﴿ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

(الأنفال ٢ ، ٤)

وهذه الشخصية الإسلامية لها آصرة يترابط بها المؤمنون جميعاً « فتجعل » الأمة الإسلامية كلها جسداً واحداً فى تحمل المسئوليات وتقبل التوجيهات ، يقول الله تعالى :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

(التوبة ٧١)

والقرآن الكريم حريص كل الحرص على أن يثبت للتاريخ أن هذه الآصرة طبقت ونفذت حسبما نزلت آيات القرآن تفصل سماتها للشخصية الإسلامية ، يقول الله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الحشر ٩)

ولقد باتت السنة المطهرة تحرس هذه الإيجابيات السلوكية وتؤكد وجوب استمراريتها كخاصية للأمة الإسلامية ففى السنة الصحيحة :

ـــ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ـــ ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ومن دقة الحرص النبوى على تلقائية استمرار هذه الشخصية المؤمنة فقد حذر النبى ﷺ من كل خصلة سيئة تفرق الأمة أو تهدد تلقائية الاستجابة للتكاليف الشرعية ففى السنة المطهرة :

ـــ إن الله كره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال .

ـــ لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض .

ـــ كفى بالمرء فقها إذا عبد الله وكفى بالمرء جهلاً إذا أعجب برأيه .

ـــ من علامات الساعة التدافع على الإمامة .

ـــ دع ما يريبك إلى مالا يريبك ... الخ مثل هذه الأحاديث الشريفة .

هكذا صان لنا مولانا وسيدنا رسول الله ﷺ الشخصية المؤمنة كشخصية عملية إيجابية تستجيب لنداء الله ورسوله إذا دعاهم لما يحييهم .

فهل العقلية المعاصرة لديها مثل هذا الاستعداد ؟

هل تستطيع أن تنفذ أوامر الله ورسوله دون حرص على المصلحة الشخصية وشهوة الحكم والشهرة ، وجمع المال ، والجرى وراء المناصب ؟؟؟

إن كان الأمر كذلك فما أيسر الحل وأقربه ، وإن كان غير ذلك فما أصعبه وأبعده ؟؟؟

أما عن الحل ففى آيات بينات من كتاب الله تعالى :ـ

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(الحشـر)

ـ ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ .

ـ ﴿ اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ .

ـ ﴿ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾ .

ـ ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ .

ـ ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ .

ـ ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ .

ـ ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا ﴾ .

ـ ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ .

يعنى بايجاز مقنن فإن الحل يكمن فى :

ـ فلنسقط الرايات جميعاً إلا راية لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ ولنسقط الزعامات جميعاً إلا زعامة سيدنا محمد ﷺ .

ـ ولنلغ الروابط الشخصية جميعاً إلا رابطة : إنما المؤمنون إخوة .

ـ ولنفسد الصناعات جميعاً إلا صناعة يعدها المسلمون .

فهل ستقدر العقلية المسلمة المعاصرة وهى متدابرة متصارعة تنهبها السياسة نهباً وتقطعها الإقليمية تقطيعاً ، وتمزقها الأهواء تمزيقاً ، وتبيعها الأهواء بثمن بخس ....

هل ستقدر العقلية المسلمة المعاصرة على تقبل قسوة هذا الحل ... ؟؟؟

أما السنة النبوية الشريفة فقد تفاءلت بوجود جماعة مخلصة تحمى حمى الإسلام وجماعة المسلمين ، ففى السنة :

ـ لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون .

ـ « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله : ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، فطوبى لمن كان واحداً من جند الله فى هذه الطائفة .

وصدق الله العلى العظيم وهو يعد باستمرارية هذه الطائفة

التى تفاعل بها سيدنا رسول الله ﷺ ، إذ يقول الله تعالى :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

(آل عمران)

فطوبى لمن يستجيب ..... ؟؟؟

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين .

الأستاذ الدكتور
رءوف شلبى

الفهـرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

قضايا إسلامية معاصرة

تصدرها

الأمانة العامة

للجنة العليا للدعوة الإسلامية

بالأزهر الشريف

المشرف العام

د. عبد الودود إبراهيم شلبي

○●○●○●○

البحث القادم

الغزو الفكري

وهم؟.. أم حقيقة ؟؟

للدكتور

محمد عمارة

كتاب قضايا إسلامية

رقم الايداع	٢٩٨٣/٨٨

- - - - - - - - - - - - - - -

طبع بمطابع روز اليوسف